المحاضرتان الخامسة والسادسة

حياة الجاحظ (١)

—«»—

تفوتنا نواحٍ كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً الى الوقوف على تفاريق حياته ، على اننا نستطيع ان نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة وان لم يكن لنا بهذه الاحاطة مقنع ، فقد نستطيع مثلاً ان نعرف طائفة من امور ميلاد الجاحظ ، وأهله ، وهيأته ، وابتداء تثقيفه ، وحالات عقله في صباه ، وحرفته في اول امره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال الذين لازمهم في حياته ، وتعذيبه بسبب صحبته لاحد هؤلاء الاكابر ، ومكاتبتهم له ، وأسفاره الى انطاكية والى دمشق والى مصر ، وآثار هذه الأسفار وطبيعة هذه الآثار ، وعلته في آخر حياته ، وتأثير هذه العلة في بعض كتاباته ، وتعقب الناس له في التماس بعض المطاعن ومداراته اياهم ، وضجره من لؤم اخلاقهم ، ووفاته .

نعم قد نستطيع ان نعرف هذا كله ، لكن هذه المعرفة لا تنقع غليلاً قياساً الى مابعرفه أدباء الافرنجة من امور كتابهم وشعرائهم وأشباه هذه الطبقات ، على ان أمرنا لا يشبه امرهم ، فان آثار عقولنا مبعثرة وقد ضاع كثير من هذه الآثار وما حفظ منها قد يصعب وصول الايدي اليه ، ولم يكتب لنا ان نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر يسلم كل عصر من العصور نتائج عبقريته الى العصر الذي يليه حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآخر في ميراث الاول فيضيف مستحدث الأدب الى قديمه ، ثما فائنا في الماضي فعساه ان لا يفوتنا في الحاضر والآتي .

فلنشرع في ذكر ما اتصل بنا علمه من حياة الجاحظ[1] .

ميلاده

لم يذكر الانباري ولا ابن عساكر ولا ابن خلكان السنة التي ولد فيها الجاحظ وانما ذكروا السنة التي مات فيها وقالوا : نيف على تسعين سنة ، وذكر ياقوت في معجمه ان الجاحظ قال : انا أسن من ابي نواس بسنة ولدت في اول سنة ١٥٠ وولد في آخرها .

ولكن ابن خلكان قال في كلامه على ميلاد ابي نواس : وذكره الخطيب ابوبكر في تاريخ بغداد وقال : ولد في سنة خمس واربعين وقيل سنة ست وثلاثين ومائة .

وقال الانباري قبل ابن خلكان : ولد ابو نواس سنة خمس واربعين ومائة وقيل ولد سنة ست وثلاثين ومائة .

وقد ذكر بعض الذين طبعوا ديوان ابي نواس انه ولد في سنة احدى واربعين ومئة .

من هذا كله يتبين لنا ان رواية ميلاد الجاحظ لا تخلو من اضطراب ، ولكننا اذا علمنا ان الجاحظ مات في سنة ٢٥٥ وانه شكا في أواخر ايامه كبر السن فقال : وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، سهل علينا ان نقول ان الجاحظ ولد في سنة تسع وخمسين ومائة او في سنة ستين ومائة بوجه التقريب .

اهله

أجمعوا على ان الجاحظ اسمه عمرو بن بحر بن محبوب وهو كناني ليثي نسبة الى ليث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة .

وقالوا : كان الجاحظ مولى ابي القلمس عمرو بن قلع الكناني ، ثم الفقيمي .

ومنهم من أضاف الى هذا : وهو كناني ، قيل صليبه ، وقيل مولى .

---

(١) استندت في الكلام على حياة الجاحظ الى كتب ابن خلكان وابن عساكر والى معجم الادباء لياقوت الرومي والى طبقات الادباء للأنباري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان جده اسود يقال له : فزارة ، وكان جمّالاً لعمرو بن قلع الكناني .

اما كنيته فقد قال ابوبكر العمري ، سمعت الجاحظ يقول : نسبت كنيتي ثلاثة ايام فأتيت اهلي فقلت : بمن أكنى ، فقالوا بابي عثمان[1] .

هذا كل ما نعرفه من نسبه واسمه وكنيته وأظن ان هذه المعرفة لا تضيء ظلمة ، فان ناحية نسبه غامضة .

غير اننا نعلم ان للجاحظ أقارب عاشوا بعده ، وأريد بهؤلاء الاقارب يموت بن المزرّع وولده ابا فضلة ، اما يموت فقد ذكر عنه ابن خلكان انه ابن اخت الجاحظ ولكن يموت يقول : الجاحظ خال امي[2] .

عاش يموت بن المزرّع بعد وفاة الجاحظ وقدم بغداد سنة احدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير وحدّث بها عن المازني والسجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن اخي الاصمعي وعن غيرهم وكان أديباً اخبارياً وله ملح ونوادر وحكايات وكان لا يعود مريضاً خوفاً من ان يتطير باسمه وكان يقول : بليت بالاسم الذي سماني به ابي ، فاذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه فقيل : من هذا ؟ قلت : انا ابن المزرّع وأسقطت اسمي .

سافر يموت الى مصر مراراً ومات سنة اربع وثلاثمائة بطبرية الشام .

يتصل بعض نسبه بحكيم بن جبلة ، وحكيم هذا كان من أعوان علي بن ابي طالب وكان صاحب الشرطة في البصرة وقتل بالبصرة .

خلّف يموت بن المزرّع ولداً اسمه ابوفضلة مهلهل وكان شاعراً ذكره المسعودي في كتابه وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال : هو شاعر مليح الشعر في الغزل وغيره ، وسكن بغداد .

وفيه يقول أبوه مخاطباً له في قصيدة[3] :

فجُبْ في الارض وابغ بها علوماً ... ولا تقطعك جائحة ثبوت

وان بخل العليم عليك يوماً ... فذلّ له ، ودبدنك السكوت

---

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) تاريخ ابن عساكر .

(٣) عن تاريخ ابن خلكان بتصرف يسير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقل : بالعلم كان ابي جواداً يقال : ومن ابوك ، فقل : يموت

من هذا كله نستطيع ان نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم وبالملح والنوادر فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب فان الجاحظ طلاب للعلم مفتون بالنوادر .—

هيأته

كان الجاحظ مشوّه الخلق وانما قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له ايضاً الحدَقي . ومن جملة اخباره انه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

تحصيله

أين طلب الجاحظ العلم في صغره

يظهر لنا ان الجاحظ كان في ابتداء امره يحمل اللوح بيده و يغدو على كتابه على نحو ما كانت عليه الحال في هذه الديار من عشرين سنة وعلى نحو حالنا في يومنا هذا فان الكتاتيب لم يبطل امرها في بعض القرى واحياء المدن . واليكم القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال[1] :

« وأنا حفظك الله رأيت كلباً مرة في الحي ، نحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى مهدياً من اولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه ، فعضّ وجهه ، فقمع ثنيّته دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ماظننت انه لا يعبش معه وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتّاب وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينجع الى ان بريء ولا هرّ ولا دعا بماء حتى اذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جروا ولا عَاقَ ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير» .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص ٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولئن دلتنا هذه القصة على ان الجاحظ طلب العلم في اول امره في الكتّاب مع ابناء القصابين وغيرهم فلقد دلتنا على شيء أعظم من هذا كله فاني ارى فيها اثر عنصر من عناصر عبقرية الجاحظ فأبو عثمان نقريس من صغر امره ، والكلمة من كلامه ، والنقريس النظّار المدقق والجاحظ مطبوع على التدقيق لا يريد ان يتفلّت منه امر قبل الاهتمام به ، على ان هذه القصة تشتمل على اشياء غير ما ذكرت فانها تدل على قوة حفظ الجاحظ فقد رواها وهو ابن سبعين بوجه النقريب ، فلم يهمل في روايتها لوناً من الالوان او حركة من الحركات او هيأة من الهيآت ، ولكن فيها غير قوة الحفظ فان كلمته : يمحو لوحه ، تتضمن سراً من أسرار لغته ؛ فهي تشبه الكلمة التي نبهتكم عليها منذ اسبوعين : أين تذهب في هذا المطر والبرد .

فبأي كلام نفصح في هذا اليوم عن فكرة مثل هذه الفكرة ، أفنستطيع ان نجد أسهل من هذا التعبير : يمحو لوحه ، على ان هذا المقام لا يتسع للخوض في مثل هذا البحث ولكني أحببت ان أشير الى شأن الآثار التي يبقيها لنا الكاتب مما يتعلق بصباه وبحياته فان هذه الآثار تكشف لنا الغطاء عن كثير من عبقريته .

حالات عقله في صباه

وكما عرفنا ان الجاحظ نشأ في الكتّاب فقد عرفنا حالةً من حالات عقله في تلك الصبوة الغامضة فمن هذه الحالات طائفة من أوهامه ، قال[1] :

واما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش فانهم يزعمون ان الخفاش اذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي فما أنسى فزعي من سنّ الخفاش ووحشتي من قربه ايماناً بذلك القول الى ان بلغت » .

ومن هذه الخرافات التي بريء الى الله منها قوله[2] : وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو في ارث منها ان حية يقال لها الدساس تلد ولا تبيض وان أنثى النمور لم تضع نمراً قط الاّ ومعه أفعى .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص١٦٧) .
(٢) » » (الجزء الرابع ص ٧٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والاعراب تزعم ان الكمأة تبقى في الارض فتمطر مطرة صيفية فيستحيل بعضها أفاعي فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين فزعم لي انه عاين كمأة ضخمة فتأملها فاذا هي تتحرك فنهض اليها فقلعها فاذا هي أفعى ، هذا ماحدثته عن الأعراب حتى برئت الى الله من عيب الحديث » .

هذه معتقدات صبي مالبث ان نشأ وترعرع فكان على العقل معتمده واليه مستنده في كل امر من امور الدين والفلسفة والعلم فلم يبق من تلك المعتقدات اثر .

حرفته وثروته

الى اي حرفة كان يحترف الجاحظ بعد خروجه من الكتّاب فقد قيل لنا أنه رؤي يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) .

ولكن هل طال عهده ببيع هذا الخبز وهذا السمك ، فالذي نعلمه انه جمع مالاً لابأس به ، قال ميمون بن هارون قلت للجاحظ[1] :

ألك بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن ابي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لاتحتاج الى تجديد وتسميد » .

أعماله

ولقد جمع هذا المال وتقلّد جلائل الاعمال فقد صدّر في ديوان الرسائل ايام المأمون ثلاثة أيام ثم انه استعفى فأعفي وكان سهل بن هارون يقول : ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب .

وكان يتقلد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ويحكى انه لما جاء الى الديوان جاءه ابوالعيناء فلما أراد الانصراف تقدم الجاحظ الى حاجبه اذا وصل الى

(١) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس ص ٧٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدملج ان لا يدعه يخرج ، ولا يمكنه من الرجوع اليه ، فخرج ابو العيناء ففعل به ذلك ، فنادى باعلى صوته : يا ابا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك .

فانظروا كيف يميل الى الهزل حتى في دواوين الخلفاء . ولكنه لم يخلق لهذه الدواوين . فقد خرج الجاحظ من ديوان الرسائل وفي نفسه عاملان : عامل الهزء وعامل الطموح فلنوضح هذا الامر .

كان الجاحظ على نحو ما صوّره لنا الفتح بن خاقان في رسالته اليه صاحب عظمة في نفسه ، يثق بعلمه وبمعرفته ، وان رجلاً قد شعر من نفسه بهذه العظمة ليصعب عليه ان يكون في ديوان مسلوب الإرادة فيه ، يعمل لرجال ربما كان يعتقد انه أرفع منهم منزلةً ، وأعلى شأناً ، فما وسعه الا ترك الديوان ، حتى يتبسط في أفق اعلى ، ويتنفس في جوّ أمدّ ، ليس بينه وبين شيء من مرادات نفسه حاجز يحجز ، او حائل يحول ، يوفر على هذه النفس كرامة ، قد لا يستطيع ان يوفرها وهو راسف في قيد السلطان ، ويتمتع بقراءة كتب كانت غذاء روحه مدة قرن .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة لانه صاحب اعتماد على نفسه يحب ان يعيش مطلقاً من كل قيد فلم يخلق لامثال هذه الدواوين التي لا تخلو من القيد ، وخاصة ان الجاحظ رجل مطبوع على الهزء والسخرية ، ومن كان هذا شأنه قد يتعذر عليه ان يجدّ ونفسه تبعثه على الهزل وان ينقاد وطبعه يدفعه الى الانطلاق فما أحبّ ان يقيد نفسه في ذرا الدواوين ، فان رجلاً قد خبر عمل السلطان ، وكان رأيه في هذا العمل على الوجه الآتي [1] :

« وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقارب بخدمته ، فان اولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خوّل مملوءة قد لبسها الرعب والفهها الذل ، وصحب ترقب الاحتياج فهم مع هذا في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن ، فان هي حلّت وكثيراً ما تحلّ فناهيك بهم

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرحومين يرق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء » .

لبعيد عادةً عن ملابسة السلطان بنفسه ومقاربته بخدمته وخاصة ان كان قد شاهد المحن التي أشار اليها وشاهد بمن حلّت وسنتكلم عليها في الآتي .

ان رجلاً يقول في مدح التجار [١] :

« اودع النـاس بدناً واهنأهم عيشاً وآمنهم سرباً ، لانهم في أفنيتهم وكالملوك على أسرتهم يرغب اليهم اهل الحـاجات وينزع اليهم ملتمسو البياعات لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم . »

لطامح الى أفق يشبه افق التجار يتمتع فيه بدعة البدن وهناء العيش وأمن السرب ، ولئن نزعت بالجاحظ نفسه عن عمل يجد فيـه الذل والملق والضرع فربما نزعت به هذه النفس الى عمل يكون فيه صاحب الامر النافذ يضرع الناس اليه و يذلون له بدلاً من ان يكون الضارع الذليل ، وما يتيسر له مثل هذا العمل الا في ظلال الخلافة فكأنما وسوست له نفسه ان يذوق لذة هـذه الخلافة فاذا صحت الرواية التي رواها ابن عساكر في تاريخه وهذه هي :

«دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا ابا عثمان ، كيف حالك ، فقال الجاحظ سألتني عن الجملة [٢] فاسمعها مني واحداً واحد ، حالي ان الوزير يتكلم برأيي و ينفذ امري ، ويواتر الخليفة الصلات اليّ وآكل من لحم الطير اسمنها وألبس من الثياب انفرها وأجلس على ألين الطبري وأتكيء على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل الفرج ماأنت فيه ، قال : بل احب ان تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبدالملك بأمري و يختلف اليّ ، فهذا هو الفرج ! » .

إذا صحت هذه الرواية فمعناها ان الجاحظ لم يجد لذة في التصدير في ديوان الرسائل لأنه لم يعمل بأمره ، وانما كان يعمل بأمر الخليفة ، على حين يجد لذته في الانفراد بالامر والنهي ، فهل افصح عن أمانيه لما قال : [٣]

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

(٢) في الاصل سألتني عن الجلة ، وفي نسخة عن المجلة .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وليس شيء الذ ولا أسرّ من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن عقد المنن في اعناق الرجال والسرور بالرئاسة وبثمرة السيادة لان هـذه الامور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس . »

وكيف كان الامر فاننا نحمدالله الذي لم يأته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد انه ان فاته الرياسة عن سبيل السلطان فقد اتته هذه الرياسة منقـادة اليه عن سبيل الادب ولا شك في ان الادب اخلد اثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه ان الجاحظ عاش في نعمة وربما اعطى نفسه حقها من اللهو فقد كان المكي يعشق جارية يقال لها سندوة ثم تزوجها نهارية وقد دعاه الجاحظ الى منزلها غير مرة .[1]

اعتناؤه بداره

عاش الجاحظ في نعمة وقد بقيت منه آثار فيها شيء يدل على التحقيق العلمي لكن هذا الشيء لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية الى غرس الاشجار ، فمن قوله : [2]

« ولقد اردت ان اغرس في داري أراكة فقالوا لي : ان الاراك انما تنبت من حب الاراك يغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً فاذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الارض وتُكنّ الى ان تصـير في جوف الارض فان الذرّ تطالبه مطالبة شديدة وان لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها فعمدت الى مشارات من صُفر من هذه المسارح وهي في غاية الملاسة واللين فكنت اضع القوصرة على الترس الذي فيه الاملس فاجد فيه الذرّ الكثير فكنت انقل المشارة من مكان الى مكان فما أفلح ذلك الحب . — »

ومرّة كان يصرفها الى تعليق الابواب الثمينة ، فمن هذا قوله : [3]

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له : ان

(١) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨

(٢) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٢٥

(٣) — كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إحكام تعليق البـاب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد وقد يذكر بالحذق في نجارة السيوف والقباب وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الاحكام والقباب عند العامة اصعب ولهذا امثال فمن ذلك ان الغلام والجارية يشويان الجدي والحمل وهما يحكمان الشيّ وهما لا يحكمان شي جنب ومن لا علم له يظن ان شي البعض اهون من شي الجميع فقـال لي : قد احسنت حين اعلمتني انك تبصر العمل فان معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق فعلّقه فاحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب اذا اردت اصفائه فقلت له اكره ان اجلسك الى ان يذهب الغلام الى السوق و يرجع ولكن اثقب لي موضعها فلما ثقبه واخذ حقه ولأني ظهره للانصراف والتفت الي فقال : قد جودت الثقب ولكن انظر اي نجار يدق فيه الرزّة فانه انـ اخطأ بضربة واحدة شق البـاب فعلمت انه يفهم صناعته فهماً تاماً . — »

من هذا كله تستنتجون ان الجاحظ ملمّ بكل امر سواء أكان هذا الامر صغيراً أم كان كبيراً فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملكات حتى يكاد يصل بهم الضعف الى البلاهة ، وانما هو كامل من الكملة .

ملازمته لاكابر الرجال — من هم الرجال الذين لازمهم في حياته .

قال ياقوت في معجم الادباء : (١)

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للعداوة بين احمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له لمَ هربت فقال : خفت أن اكون ثانيَ اثنين اذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنورَ حديدٍ فيه مسامير كان هو صنعه ليعذّب الناس فيـه ، فعذب هو حتى مات يعني محمد ابن الزيات . — »

من هو محمد بن عبد الملك ومن هو احمد بن ابي دواد وما هي العداوة بينهما . (٢)

(١) معجم الادباء — الجزء السادس — ص ٥٧

(٢) اعتمدت في الكلام عليهما على تاريخ ابن خلكان . —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات وزير المعتصم وهذه قصة وزارته :

كان احمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال له المعتصم : ما الكلأ فقال لا اعلم ، وكان قليل المعرفة بالادب ، فقال المعتصم : خليفة امي ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ثم قال : ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات فادخلوه اليه فقال له : ما الكلأ ، فقال : الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم انواع النبات فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه و بسط يده .

ولما مات المعتصم وقام بالامر ولده الواثق هرون أقر الواثق ابن الزيات على ما كان عليه في ايام المعتصم بعد ان كان ساخطاً عليه في ايام ابيه ، وحلف يميناً مغلظة انه ينكبه اذا صار الامر اليه ، فلما ولي أمر الكتّاب ان يكتبوا ما يتعلق بامر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه فكتب ابن الزيات نسخة رضيها وأمر بتحرير المكاتبات عليها . فكفر عن يمينه وقال : عن المال ، والفدية عن اليمين عوض وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

فلما مات الواثق وتولى المتوكل كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء وسببه انه لما مات الواثق بالله اخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق واشار ابن ابي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عمّمه بيده والبسه البردة وقبّله بين عينيه وكان للمتوكل في ايام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ويغلظ له في الكلام منقرباً بذلك الى قلب الواثق فأضمرها المتوكل في نفسه فلما ولي الخلافة خشي ان ينكبه عاجلاً ان يسيّر امواله فيفوته فاستوزره ليطمئن وجعل ابن ابي دواد يغريه و يجد لذلك عنده موقعاً حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع املاكه وضياعه وذخائره الا ما كانت قيمته مائة الف دينار فندم على عمله وقال لابن أبي دواد : اطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم اجد عنه عوضاً .

كان ابن الزيات قد اتخذ في ايام وزارته تنوراً من حديد واطراف مسامير المحدودة الى الداخل وهي قائمة مثل رؤس المسال وكان يعذب فيه المصادرين وارباب الدواوين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقه احد الى هذه المعاقبة وكان اذا قال له احد منهم ايها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة .

فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله في التنور وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال ابن الزيات : يا امير المؤمنين ارحمني ، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس فلما كان في الحبس طلب دواة و بطاقة فأُحضرتا اليه فكتب :

هي السبيل فمن يوم الى يوم كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعنّ رويداً انها دول دنيا تنقل من قوم الى قوم

وسيرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر باخراجه فجاؤا به اليه فوجدوه ميتاً وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وكانت مدة اقامته بالتنور اربعين يوماً فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ ان يكون فيه ثاني اثنين .

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن ابي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ، اظن انه لم ينج من شيء من ذلك وقبل ان نبين ماصنع به ابن ابي دواد لا حرج علينا ان أوجزنا في كلمة على ابن ابي دواد .

قال ابراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك ودخل احمد بن ابي دواد فعدّهم واحداً واحداً باسمائهم وكناهم وانسابهم فقال المأمون : اذا استجلس الناس فاضلاً فمثل احمد فقال احمد : بل اذا جالس العالم خليفة فمثل امير المؤمنين الذي يفهم عنه و يكون أعلم بما يقول منه .

هذا هو احمد بن ابي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة وعزل يحيى بن اكثم وقد خصّ به أحمد بن ابي دواد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً الا برأيه .

ولما مات المتعصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن ابي دواد عنده ولما مات الواثق بالله وتولى اخوه المتوكل فلج ابن ابي داود في اول خلافته فولي موضعه ولده ابو الوليد محمد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكثر ذامّوه وقل شاكروه واستمرّ على مظالم العسكر والقضاء الى سنة سبع وثلاثين ومائتين فسخط المتوكل على القاضي احمد وعلى ولده محمد وصرف ولده عن المظالم ثم صرفه عن القضاء واخذ من الولد مائة الف وعشرين الف دينار وجوهراً بأربعين الف دينار وسيّره الى بغداد من سرّ من رأى وفوّض القضاء الى القاضي يحيى بن اكثم الصيفي.

كان بين قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد ابياتها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضي احمد فقال:

احسن من سبعين بيتاً هجا ... جمعك معناهن في بيت

ما احوج الملك الى مطرة ... تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ويقال ان بعض اجداد القاضي احمد كان يبيع القار فقال:

ياذا الذي يطمع في هجونا ... عرّضت بي نفسك للموت

الزيت لا يزري باحسابنا ... أحسابنا معروفة البيت

قيرّتم الملك فلم ننقه ... حتى غسلنا القار بالزيت

تعذيبه

قلت: لم ينج الجاحظ من شر ابن ابي دواد لأنه كان منحرفاً عنه، ملازماً لعدوه ابن الزيات. فماذا صنع به ابن ابي دواد؟

قال ابو عبدالله المرزباني [1]:

«حدث اسحاق الموصلي وابو العيناء قال: كنت عند احمد بن ابي دواد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان من اصحاب ابن الزيات وفي ناحيته، فلما نظر اليه قال: والله ماعلمتك الا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة، معدداً للمساوي ومافتئت باستصلاحي لك ولكن الايام لاتصلح منك [2] لفساد طويتك ورداءة دخلتك وسوء اختيارك وتغالب

(١) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨

(٢) في الاصل: لا تصلح منك الاّ لفساد طويتك... فأظن ان «لا» زائدة فلا محل لها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طبعك فقال له الجاحظ : خفض عليك ايدك الله فوالله لئن يكون لك الامر عليّ خير من ان يكون لي عليك ولئن اسيء وتحسن أحسن عندك من ان احسن فتسيء ، وان تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن ابي دواد : قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك اما قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ، ان اخذه اليم شديد . قال تلاوتها تأويلها اعز الله القاضي ، فقال : جيئوا بجلاد ، فقال : اعز الله القاضي ، ليفك عني او ليزيدني فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالجلاد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ و يطيل امره قليلاً فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة فضحك ابن ابي دواد واهل المجلس منه ، وقال ابن ابي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه ثم قال يا غلام ، صر به الى الحمام وامط عنه الاذى واحمل اليه تحت ثياب وطويلة وخفاً فلبس ذلك ثم اتاه فتصدر في مجلسه ثم اقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا ابا عثمان » .

مكاتباتهم له

هذه طائفة من اكابر الرجال الذين كان يلازمهم ويتردد اليهم وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ ان ابا عثمان كان يأكل معه في يوم من الايام فجاؤا بفالوذجة فتولع محمد بالجاحظ وأمر ان يجعل من جهته مارق من الجام فأسرع الجاحظ في الاكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً[1] .

ولقد رغب في مجالسه الامراء والخلفاء وصحب هؤلاء الامراء في أسفارهم وقد كانوا يكاتبونه ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل وأمره على الشام وامره ان يستنيب عنه وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة .

وقد كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر

(١) تاريخ ابن عساكر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة ، قال ابوهفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبةً للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسماعيل القاضي (١) .

ومن رسائل الفتح بن خاقان الى الجاحظ كتاب كتبه اليه يقول في فصل منه (٢) : « ان اميرالمؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسك لعلمك ومعرفتك الحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان التي اليّ من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به اليّ وكن من جدا به على نفسه ونثال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك سنة كاملة مستقبلة وهذا مما لم تحتكم به نفسك وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ولولا اني أزيد في تخيلتك لعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة ، منهم ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب وكان والياً على الاهواز ، وابوالفرج نجاح بن سلمة وسنتظر في شعره وكان يكاتب جماعة منهم ابراهيم بن المدبر وكان ابراهيم هذا ينبسط مع ابي عثمان وكانا يجتمعان في كل ثلاثة ايام .

أسفاره

فلنصحب الجاحظ في أسفاره ولننقّب عن الآثار التي خلّفها بعد هذه الأسفار ، فقد كان ابوعثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الارض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحاري جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك وجاري الطرق ودخل البراري وأمعن فيها وضرب الى المواضع الوحشية (٣) .

ومن الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ، فقد يكون الضرب في مناكب الارض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور

(١) فوات الوفيات (الجزء الثاني) . (٢) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس) ص ٧٢ . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ١٥)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومتباين الالوان مما يكون مادة لرجال العبقرية يستمدون منها في الشعر والنصوير ، فقد اقتبس (شانو بريان) من سفره الى اميركة صوراً شتى وألواناً غريبة أسبغت على فكره وعلى لغته نعمة الشباب ، ومن أراد ان يعرف ماالذي أوحاه السفر الى « لوتي » فليقرأ كتبه التي صوّر فيها مازاره من مختلف الأصقاع فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد فأحيا في كتبه مصر القديمة وافر بقية المحرقة وقسطنطينية الساحرة وكان لبلاد فارس ولديار الشام صورة في هذه الكتب ، وأحيا عواصف بحر من البحور ولذّات جزيرة من الجزائر ، وكان يمزج عواطفه بكل ماوقعت عليه عينه .

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر اثراً في بعض هذا الأدب. فلو لم تحضر الهموم رحل ابي عبادة البحتري فيوجه عنسه الى (ابيض المدائن) لما كان لنا من شعره هذه السينية الخالدة التي لانجد سينية أفضل منها في شعر العرب .

اي شيء من ايوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري ، أفاته شيء من صورة انطاكية ، أم فاته شيء من مواثل المنايا وتزجية الصفوف واخضرار لباس الجند واصفراره وعراك الرجال بين يدي كسرى واشاحتهم برمح او الاحتهم بترس فكأنهم احياء وكأنهم أموات .

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس او كأنها ضوء الليل حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها واغتلى ارتيابه في العسكر فكانت يده تلقراهم باللمس فليس يدري أهو في حلم قد أطبق عينيه على الشك ام هي امان غيرت ظنه فما تمالك في سحر هذه المشاهد وروعة هذه الصور ان اعانها بدموعه فبكى على ايوان بزّ من بسط الديباج واستلّ من ستور الدمقس لم يكن بانيه نكساً في الملوك ، وصبا الى فيان المقاصير بين حواء ولعساء ، وما تمالك ان بكى على رباع عمرت دهراً للسرور فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي !

ولو لم يغر المهلبي شعراء بغداد بابي الطيب المتنبيء حتى تباروا في هجائه وأسمعوه مايكره وتماجنوا به وتنادروا عليه لما اتخذ المتنبيء الليل جملاً وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد والى ابي شجاع عضد الدولة فكان من رحلته الى بلاد فارس هذه الابيات التي وصف بها شعب بوّان فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ملاعب جنة لو سار فيهـا سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كرمن، من الحران
غدونا لنفض الاغصان فيها على أعرافها مثل الجمان
فسرتُ وقد حجبن الحرّ عني وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشـير اليك منـه باشربة وقفن بلا اوان
وأمواه تصل بهـا حصاها صليل الحلي في ايدي الغواني

وكان لنا من هذه الابيات صور ناطقة في الوصف أضفناها الى ميراثنا الأدبي .

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت اكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ماقاله احد كتاب الافرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه فقد قال : يسافر الانسان كي ينسى الحقائق . وفي كلتا هـذه معنى بعيد ، فكأنه يريد ان يقول ان الحياة تشتمل على حقائق لا تخلو من ايلام وايجاع فاذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لان طرفه يلهو بامور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها .

واني اعتقد ان من جملة الامور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها .

سافر الجاحظ الى انطاكية والى دمشق والى مصر ووضع كتـاباً اسمه : (كتاب البلدان) وغير بعيد انه وصف فيه الامصار التي عرفها ولكن هذا الكتاب لم يسقط الينا فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وانما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف مانتهى الينا من كتبه ، فاذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وانما يتعلق هذا الحكم بما وصل الينـا من آثار أسفاره دون غيرها مما لم نطلع عليه .

فمن آثار سفره الى انطاكية قوله[1] :

« اني رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدّة من الثلثين الاسفلين

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٥١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقلت لهم : مابال هذا الثلث الاعلى أجدّ وأطرى ، قالوا : لأن تسميتنا ترفع من بحرنا هذا فكان لايمر بشيء الا أهلكه فمرّ على المدينة في الهواء محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هي عليه فضربه بذنبه ضربة خرقت من الجميع اكثر من هذا المقدار فأعادوه بعد ذلك ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا ان ديدن الجاحظ في كل امر من الامور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلّعة لا تريد ان يفوتها شيء .

اما آثار سفره الى دمشق والى مصر فانها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر الى دمشق مع الفتح بن خاقان وذكر هذه الحكاية[1] :

« واحتاج أصحابنا الى التسليم من عض البراغيث ايام كنا بدمشق ، ودخلنا انطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرّة فلم ينتفعوا بذلك لان براغيثهم تمشي و براغيثهم نوعان : الابجل والبرد ، انما سموا ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فان يحيى زعم ان البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقّاً كما يعرض الطيران للنمل وكما يعرض الطيران للدعاميص فان الدعاميص اذا انسلخت صارت فراشاً فكأن اصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً وكانت له بليّة أخرى وذلك ان الذي تسهره البراغيث لا يستريح الا ان يقتلها بالعرك والقتل والاّ ان يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى انهن اذا صرن عشرين كان أهون عليه من ان تكون احداً وعشرين ، وكان الرجل اذا رام ذلك من واحد منها انثنت يده وكانوا ملوكاً ومثل هذا شديد على أمثالهم فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني وجعلوها طويلة الابدان والاردان فناموا مستريحين . »

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره الى بلد يكاد يكون جنة الدنيا فلسنا ندري اتغنى الجاحظ بغوطة دمشق ام نظر الى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم فمن قوله :[2]

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ١١٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وقول الدمشقيين ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا الا أثار لنا التأمل واستخرج لنا النفرس بين غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها وماندري اجواهر مقطعاته اكرم في الجواهر ام تنضيد اجزائه في تنضيد الاجزاء» .

انه ليعلم هذا كله فهل استمالة شيء من المسجد ومحرابه وقبة مصلاه وجواهر مقطعاته أم آلمه عض البراغيث في دمشق فشغله هذا العض عن كل حسن من محاسنها .

على انه قد اشار الى المسجد اشارة خفيفة فقال : (١)

« وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ومن رآه فقد علم ان احداً لا يرومه وان الروم لا تسخوا انفسهم به فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب الى ان ذلك الصنيع مجانب لسنة الاسلام وان ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وان البال لايكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه و يعترض عليه . »

ولئن ابقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث فقد ابقت مصر في هذا الذهن العجيب صورة أبشع فمن قوله : (٢)

« كنت ببجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحد نحو ارزة . »

براغيث وعقارب !

هذا ما عرفناه من آثار سفره الى مصر ودمشق ، فاذا كان كلامه في كتاب البلدان وفي رسالة مصر من هذا النمط فلم يكن الجاحظ في اسفاره شاعراً ، اي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور وانما كان يبحث عن حقيقة من الحقائق العلمية فلم يبعج بطن العقرب على سبيل اللهو وانما فعل هذا واضرابه على سبيل التحقيق وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه وتجريبه . على ان صاحب صبح الاعشى ذكر ان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الاول — ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وانما سميت مصر بمصير الناس اليها ، فاين هذه الرسالة [١] ؟

***

علّته

كيف انطفأ نور هذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل الى كل ضرب من ضروب المعرفة حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين اشكالها فكان لنا من مزدحمها كنز لا يفنى سجيس الليالي .

حكى ابو علي القالي عن ابي معاذ عبدان الخولي المتطبب قال : [٢]

دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج فلما اخذنا مجالسنا اتى رسول المتوكل اليه ، فقال : وما يصنع امير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ثم اقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، احدهما لو غرز بالمسال ما احس والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث واكثر ما اشكوه الثمانون . »

وقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث فقال : [٣]

وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة فقال لمن اراد حمله : وما يصنع امير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل . »

وحدث المبرد قال : [٤]

دخلت على الجاحظ في آخر ايامه ، فقلت له كيف انت ، فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه واشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم انشدنا :

---

(١) الجزء الثالث — ص ٣١٨

(٢) امالي القالي — الجزء الاول — ص ٥

(٣) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

(٤) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أترجو ان تكون وأنت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لوقرض بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[1] : اصطلحت على جسدي الاضداد ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان أكلت حاراً اخذ برأسي ، أنا من جانبي الايسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت وبي حصاة لا ينشرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة . »

هذه جملة الروايات التي تتعلق بعلته ، وقد اثّر هذا المرض في كتاباته حتى قال في كتاب الحيوان ، وكتاب الحيوان ألفه في الربع الاخير من عمره[2] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب الى ان قال :

فان وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد ان صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي» .

شكواه من اللوم

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صوّرها فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لاتهدأ أعصابهم الا اذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول ابي عثمان في هذه الجماعة[3] :

« فان كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب او كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم

(١) مرآة الجنان — الجزء الثاني — ص ١٦٤ . (٢) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفلتات الضجر ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ومن عارض التبرع ومن أخلاق من عسى ان يتسع في القول بمقدار ضيق صدره و يرسل لسانه ارسال الجاهل بكنه مايكون منه ولو جعل بدل شغله بقليل مايرى من المذموم ثقله بكثير مايرى من المحمود كان ذلك أشبه بالادب المرضي والخيم الصالح وأشد مشاكلة للحكمة وأبعد من سلطان الطيش وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين وأجدر ان يهب الله تعالى له السلامة في كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ومقارعة اعدائه » .

من هذا يتبين لكم ان الفالج قد اثر في تأليف الجاحظ حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة و لكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان فكان يضطر الى مداراتهم واستمالتهم والى كثرة الاعتذار فمن قوله[1] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان و بظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لا احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار حتى كأن الذي أفيده اياهم استفيده منهم وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة فالجه ومرة شيئاً أشد من الفالج وهو لؤم بعض الأخلاق حتى ورد الخبر بموته .

وفاته

حدث احمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن ابيه قال[2] :

قال لي المعتز بالله : يايزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب ان اشخصه اليّ وان يقيم عندي ، فقلت له : انه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقد قال فيه ابو شراعة :

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٥١) . (٢) تاريخ ابن عساكر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في العلم للعلماء ان يتفهموه مواعظ
واذا نسبت وقد جمعت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت ايامه وهو الرئيس الواعظ

* * *

هذه خلاصة حياة تقلّب صاحبها في كل أفق من آفاق العيشة ، وخبر كل امر من امور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزّه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بجامعها فلم يُخَفَ عليه شيء من لذة السفر ولذة العلم وماشابهها ، ومدّ الله في أجله فكأنه يقول :

متى يأت هذا الموت لاتبق حاجة لنفسي الاّ قد قضيت قضاءها

ان حياةً مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الإنسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لاأمرُّ الاّ بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية .

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل وكان همه الأبعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الاشارة الى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب و بالعلم ، جزاء هذا كله تعقب الناس اياه وهو في أشدّ حالةٍ من الحالات ، واي حالة أشد من الفالج ، فقليلاً مانسامح وقليلاً مانلاين ، فقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي اليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر الى سيئة تسترها حسنات فلا نفترق العين الا هذه السيئة ونغضي على الحسنات فنعمي عنها او نتعامى ، وقد تؤلمنا المحاسن في كثير من الأحوال فلا نحب ان يبرع الى جنبنا بارع ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول ان نهذّب هذه الطبيعة ، هل هذّب العلم من أخلاقنا ، أفلا نزل في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون الى الكهوف والغيران في شباب البشرية !

نعم ، هذا مالقيه الجاحظ من الناس في أواخر ايامه ، وأغرب من هذا كله انه ربما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الّف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته حتى كان ينسب كتبه الى من تقدم عصرهم فيأتيه اولئك الطاعنون باعيانهم فيكتبون كتبه المنسوبة الى غيره بخطوطهم و يتدارسونها بينهم و يتأدبون بها و يستعملون الفاظها ومعانيها ، ولو علموا ان هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم الا الطعن والقدح !

وقبل ان انظر في سيرة الجاحظ كنت أنظر في سيرة المتنبي ، فما أشبه الذي كان يلقاه الجاحظ بالذي كان يلقاه المتنبي فأبو عثمان شكا الحسد ، وابو الطيب لم يسلم من شر الحساد .

كنا نعلم ان اباالطيب كان في ابتداء امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله يشتهي كل شيء ، يشتهي النعام من الملابس والكريم من المطايا . توفي ابوه وهو فقير فضرب في مناكب الشام التماساً للرزق وكثيراً ما أشار الى فقره والى إخفاقه في السعي والى كساد شعره في اسواق بعض الممدوحين ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين ، فكان ضجره من هذه الأخلاق اللئيمة يطفح على جنبات شعره ، ولقد أفضى الامر بحساده الى ان شمتوا بموت جدته لانه كان يذهب في حبها كل مذهب .

لم يسلم المتنبي من شر الحساد وهو فقير فأخلق به ان لا يسلم من هذا الشر بعدان غرق في مكارم سيف الدولة الباهرات وبعد ان أنعل أفراسه عسجداً بنعمى ملك حلب فقد آلم كثيراً من الشعراء وكثيراً من رجال اللغة ، فكانت شكوى الحسد تفيض في شعره وربما تمنى القوم موته فنعوه وهو حي ولكنه كان ينتفض من بعد منعاهم فيزول القطن والكفن .

ترك المتنبيء سيف الدولة واتصل بكافور الإخشيدي فاندفع في شكوى الحسد وغادر كافوراً فوقع في بغداد في شر شعرائها الذين نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه .

لم يسلم المتنبي من داء العبقرية في كل طور من أطواره ولئن كان الجاحظ يهزأ بحساده فلم يكن المتنبيء اقل هزأ منه بهؤلاء الحساد فلم يفكر في واحد منهم وربّ بيت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قاله في التعريض بهم أشد من وقع السهام في غلس الدجى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

* * *

نظرت في سيرة الجاحظ وفي سيرة المتنبيء وكنت أقرأ من ايام قليلة مقالاً أنشأه الكاتب الفرنسي (زولا) في وصف نعش الشاعر (فلوبر) .

لم يمش حول نعش هذا الشاعر الا ثلاثمائة رجل من باريز فقد غاب كثير من الذين كان يجب عليهم ان لا يغيبوا ، ومدينة الشاعر نفسه وهي (روان) لم تشيع اشهر ولد من أولادها فقد قالوا ان اهل (روان) انما هم تجار يسخرون من الادب على ان في (روان) كثيراً من الاساتيذ والمحامين والاطباء والشباب المستنير ، ان فيها من قرأ رواية مادام بوفاري فلم يتحرك واحد منهم ، فلم يصحب النعش الا مائتا رجل من (روان) وكثير من الناس كانوا ينظرون الى النعش على سبيل اللهو فلم يكن على وجه واحد منهم اثر من آثار الحزن والحقيقة ان اربعة اخماس اهل روان لا يعرفون فلوبر والخمس الآخر كانوا يكرهونه وقد ختم (زولا) مقاله المبكي بهذه العبارة : هذا هو المجد .

نعم هذا هو المجد ، وهذا ما يصادفه رجال العبقرية في حياتهم وفي مماتهم !

أفهدأت أفكار هذه الطبقة من الناس في عصر من العصور ؟ أفنال رجال العبقرية ما يستحقونه من الجزاء ؟ استغفرالله . انهم لا يريدون جزاء ولا شكوراً انهم اجل من كل جزاء ومن كل شكور ، وانما الذي يريدونه ان نكف عن نهشهم وعن لسعهم هذا هو كل جزائهم .

ومن البلاهة ان يبلغ من وساوسنا ان نعتقد ان مجرد الطعن على بارع من البارعين يحطمه تحطيماً أفحطم الجاحظ طعن الطاعنين ؟ أفهدم المتنبيء نهش الناهشين ؟ أفلم يذهب اولئك الناهشون اللاسعون بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق الا ذكر الجاحظ والا ذكر المتنبيء !

اننا نستطيع ان نهدم الجاحظ واننا نستطيع ان نحطم المتنبيء والسبيل الى ذلك ان نأتي بادب ابرع من ادب الجاحظ و بشعر اروع من شعر المتنبيء . فنعفي يومئذ على آثارهما ، فاما الهذيان وأشباهه فيذهب جفاء واما النبوغ فيمكث في الارض !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البستان

« في الميزان »

—«»—

البستان معجم عربي وضعه الشيخ اللغوي عبد الله البستاني ، لنتداوله ايدي المحققين عند احتياجهم الى مراجعة بعض الألفاظ الضادية ، وقد قرظته بعض الجرائد والمجلات ، ونسي النقدة انهم قد اوتمنوا على لغة آبائهم ، وحفظها من الفساد وان لا ينظروا الى لوجوه ولا الى الصداقة ، ولا الى كل شيء يفكك عرى هذا اللسان البديع البنـاء المحكم الأركان . على اننا كنا قد نقدنا بعض النقد المجلد الاول من هذا الديوان ليكون المجلد الثاني أتقن تأليفاً وأسد انشاءً وذلك في مجلتنا لغة العرب (٦ : ٦٨ ومايليها) وظن بعضهم ان في الحوباء حوبةً ، تبرئة لمديحهم المكيل كيلاً ، اذ غايتهم غير الغرض الذي رمينا او نرمي اليه . وقد أشرنا الى مافي الجزء الثاني من الأوهام اشارة قابس نار في مجلتنا ايضاً (لغة العرب ٩ : ٥٠٣) لكن ذلك غير واف بالغرض ، اذ لم نتعرض لهذه التفلية الا كمن يمر بالديار راكب القطار ، او ناقل الأخبار على أجنحة البرق خاطف الابصار .

والآن أردنا ان نعيد نظرة ثانية في هذا المجلد الثاني ، ليعلم الواقف على هذا المقال ان هذا الديوان الجديد مفسدة للغة العربية ، ولكلام كل من ينقل عنه ، او يقتبس منه . والدليل : انك لا تجد فيه صفحة واحدة سالمة من عدة أغلاط . ولو كانت قليلة و يسيرة وخفيفة لهان الامر واحتقر ، لكنها مخلة بالمعنى والمبنى ، فاقتضى التنبيه على أمثلة منها ، لتجلي الحقيقة بصورتها الواضحة ، وتزول اللائمة من صدور بعض الثقات الاثبات ، الذين يتوخون الصدق في جميع شؤونهم .

الصفحة الاولى من هذا المعجم هي نصف صفحة على الحقيقة ، وقد طالعناها بتؤدة ، فلم نر فيها خلالاً مميزة لها دون غيرها ، فقد بالغ بعض الكتبة في اعلاء شأن هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتاب ، مبالغةً مخالفةً لكل واقع . والذي ثابتناه ان هذا المعجم نسخة ثالثة من محيط المحيط ، (والثانية هي أقرب الموارد كما قلناه مراراً) ، والأغلاط الواردة في الأم ، واردة بعينها في الابنة معزيادة . نعم قد أصلح الشيخ عبد الله بعض هفوات محيط المحيط ، الا انه عوّض عنها باوهام شنيعة ، كرّهت المطالع ان ينعم النظر في ما حرره قلمه . ونحن نذكر لك بعض الأمثلة .

جاء في اول باب الضاد : « قال ابو منصور الثعثع الصدفة » وهي عبارة التاج . لكن الوارد في الشرح (اي التاج) هو من خطإ الطبع . والصواب : الثعثع الصدف ، كما في لسان العرب ، والثعثعة : الصدفة . اي صواب التعبير ان يفسر المفرد بالمفرد ، والجمع بالجمع على ماهو معهود .

وقال : « الضوبان كقربان السمين الشديد من الجمال » ولم يذكر جمعه ، لان سائر الدواوين لم تذكره . الا ان التاج ذكره في مادة ض و ب : واحده كجمعه سواء . وهذا يجب ان يعرف ، لان المعاجم وضعت لمثل هذه الامور .

وفيها : « المضوُد المزكوم » والصواب المضؤود بواوين الاولى مهموزة والثانية ساكنة ، لان المضؤود على المفعول . وفي هذا اللفظ خمسة أحرف ، فيجب ان يكون في الموزون خمسة أحرف ايضاً ، كما هو فعل بنفسه حينما قال في ضأك «مضؤوك» .

وقال « وضأز فلاناً ، بخسه ومنعه » — والصواب ضأز فلاناً حقه بخسه ومنعه .

وفي تلك الصفحة « الضُؤضؤ كهدهد والضِئْضِئُ كجرجر ، والضِئْضِيُ كجرجير والضُؤْضُؤ كسُرسُور وضيضأ كضفدع ، الاصل ... » والصواب وضِئْضأ كضفدع . لكن المؤلف اتبع رسم الكلمة على ماجاء في التاج المطبوع الكثير اغلاط الطبع . والصواب ان تثبت الهمزة الاولى الواقعة بعد الضاد الاولى ، لان اللفظ مهموز الثاني والرابع . وقد نبه على ذلك صاحب مد القاموس . — ثم ان اتخاذه (جرجراً) ميزاناً له فقد اتبع فيه صاحب القاموس . والذي كان يجب عليه ان يتخذ ميزاناً له لفظاً مشهوراً بين الخاصة والعامة . اي يقول كجعفر او كسبسب كما فعله القاموس نفسه ، في جميع المواطن الشبيهة لهذا الحرف . اما المشهور في وزن جَرْجر ففتح الجيمين . نعم ان الجِرْجِر بكسر الجيمين وارد ايضاً ، ومعناه غير المعنى المفتوحيهما ، بيد أن المعهود في الجرجر عند جميع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس هو فتح الجيمين ، وبمعنى آخر ، وهو ماتداس به الكدس من آلات الزراعة . فكان يحسن بالشيخ ان يتخذ اللاحب من الطرق لا المندرس منها .

وقال في تلك الصفحة : وفي خطبة ابي طالب « الحمد لله الذي جعلنا من ضِئْضِيءِ مَعَدّ وعُنْصُر مُضَر » ... والذي في دواوين اللغة : «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، و ضِئْضِي مَعَدّ ، وعُنْصُر مُضَر » . فكان يجب ان يراعي الامانة التي اوتمنها ولا يخالفها ، امّا اذا كانت نيته الاختصار ، فكان يحسن به ان يحافظ على الطريق التي اتبعها من تعمد الحذف و يجعل ثلاث نقط بدلها . فيكتب مثلاً هكذا : « الحمد لله الذي جعلنا من ... ضئضيءِ معدّ وعنصر مضر .» وعلى هذا الوجه يسلم من كل نقد ، ويُرْضي الحزبين : حزب المحافظين على سلامة النصوص . وحزب مختصر يها .

وجاء فيها : « المضوضي: المصوّت » . وليس هذا صحيحًا ، فان المُضَوْضِيءَ خاصّ بالرجال ، وكان عليه ان يقول : رجل مُضَوْضِيءٌ او : المُضَوضِيءُ من الرجال المصوّت . — ثم قوله : « المضوضى بتسهيل الهمزة الاخيرة ليس هـذا موطنه . بل مَظِنَّتُهُ في مادة (ض وض) اماهنا فكان يجب ان يقال المضوضيءُ اي بهمزة في الآخر لكنه نقل ما جاء في القاموس ومن نقل عنه ولم يتروّ كل التروّي في ما نقل . واللغوي الضليع من يميز الغثّ من السمين ، ويأخذ الحسن و ينبذ الرديء .

ومن منقولاته ، انه قال « الضُوْضُوء ايضـاً كهدهد . الاخيل . توقف فيه ابن دُريد فقال ما ادري ما صحته » اه . قلنا في هذا التعريف عدة مغامز الاول انه قال الاخيل . وللاخيل عدة معان ، منها ، الكبر ، وذو الكبر وذو الخال اي الشامة ، وطائر مشؤوم ، او هو الصرد ، او هو الشقراق ، فأيًا من هذه المعاني اراد صاحب البستان ؟ والذي يظهر من سياق عبارته أنه أراد معنى الطائر ، فكان عليه ان يقول ، الضُوْضوء ايضاً كهدهد الاخيل للطائر المعروف ، او لهذا الطائر المعروف ، او ان يقول الأخيل بمعنى الطائر حتى تنتفي سائر المعاني التي تنطوي تحت الاسم المذكور . وهذا يتجلى من كتابه نفسه اذا راجعنا معنى الاخيل . — وقوله توقف فيـه ابن دريد يصح على المعنى الذاهب الى الطائر ، امامعانيه الباقية فلم يتوقف فيهـا ابن دريد . فهذا المغمز الثـاني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما المغمز الثالث فهو : ان توقف ابن دريد في هذا المعنى ذكره صاحب حياة الحيوان ، على مانص عليه صاحب التاج . والدميري ليس بحجة في نقل الأسانيد اللغوية . والدليل ان صاحب المخصص قال في كتابه (٨ : ١٥١) [قال] ابن دريد : (الشقراق) وهو الضوْضوْ ايضاً والشِرْشِق » اه . ولم يضعف هذه الرواية ولم يجرحها ولم يطعن بها ، ولم يقل ان ابن دريد توقف في معنى الضوْضوْ .

والمغمز الرابع : لو صح نسب هذا التوقف الى ابن دريد لما جازله ان يذكره في كتابه ، لانه كثيراً ماحذف الزوائد من الشروح والتفاسير والتآويل ، فكان عليه ان يسير في طريقه لا يلوي عليها ولا على أمثالها ، بل يتمسك بالمبدإ الذي عاهد نفسه عليه ليكون معجماً حاوياً لباب اللغة ، لا قشورها اوزوائدها التي تترك للمعاجم الكبرى ، كلسان العرب أوتاج العروس أو مدّ القاموس ، الى نحوها .

والمغمز الخامس انه لم يحقق شيئاً بنفسه عن لفظة الضوْضوْ وعن معناها الحقيقي ، والذي ظهر لنا ان الكلمة لغة في اليُؤْيُؤ ، في لسان من يقلب الياء ضاداً بعد ان يجعلها جيماً (راجع لغة العرب ٦ : ٧٨٧) فهو من الصوائد الجوارح لامن البغاث . وقد نبه على هذا الامر ابن سيده في مخصصه . فليراجع (في ٨ : ١٥١ وفي عدة مواطن بعد تلك الصفحة) .

وجاء في تلك الصفحة الاولى (ضَوُلَ الرجل ضُؤُولةً وضَآلة ، صغر وضعف ...) قلنا : والذي في لسان العرب (ابو منصور ، ضَوُلَ الرجل يضؤُل ضآلةً وضُؤُولة ، اذا قال رأيه . وضَوُلَ ضآلة ، اذا صغُر) اه . فانظر كيف خلط مصدراً بمصدر ، ومعنىً بمعنىً ، ومبنىً بمبنىً .

وقال : « يقال (ماعليك فيه ضُؤُولة) اي صَغَار وضعف » اه . وهذا كلام لاغبار عليه . والذي عهدناه في هذا الديوان ان يفسر الصعب من الكلم بالفاظ سهلة يفهمها الجميع . فقوله صغار ، عوض (مذلة) التي استعملها سائر اللغويين ، من باب وضع الشيء في غير موضعه .

* * *

فتحنا النقاباً بعد الصفحة الاولى من هذا (الكنز الثمين) الصفحة ٤٠٤ فرأيناه يقول فيها « الضِرْيِس بالكسر وفتح الياء طائر يقال له الطيهوج وهو المعروف بالحجل » اه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكم من غلط في هذه العبارة الصغيرة ! — واول هذه الاوهام انه ضبط الضريس ضبط قلم وكلمة بكسر الضاد واسكان الراء وفتح الياء نقلاً عن محيط المحيط ، بحر الاغلاط وهاوية الاوهام . والصواب وزان زُبَيْر اي بالتصغير . قال الكمال الدميري في طرغلودس « يعرفه اهل الأندلس ويسمونه الضُرَيْس (بضاد معجمة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وياء ساكنة منقوطة اثنتين من تحتها وسين مهملة) . قال الرازي في كتاب الكافي هو عصفور صغير أصغر من جميع العصافير ، لونه رمادي واحمر وأصفر وفي جناحيه ريشة ذهبية ومنقاره رفيق ، وفي ذنبه نقط بيض متواترة ، وهو دائم الصفير واجوده السمين» اه على انه قال في رسم الضريس « الضُرَيْس : الطيهوج » فالدميري ضاد نفسه بنفسه . ولم نر في سائر كتب اللغة ذكراً للضُرَيْس في مادة ض ر س ، ولا في مادة ط ه ج ولا ط ي ه ج . والذي عليه العلماء ان الضُرَيْس تخفيف اليونانية طرغلوديس او ضرغلوديس .

هذا من جهة ضبط الكلمة . ولم نجد مؤلفاً قبل صاحب محيط المحيط ضبط اللفظ بالوجه الذي ذكره الشيخ عبد الله . على ان دوزي ذكر ان بعضهم سماه : (الضُرَّيس) بضم الضاد وتشديد الراء المفتوحة ، ويحيل النظر على القزويني . وقد رأينا ان الضبط الصحيح هو ماذكرناه عن الدميري وذكر عن ابن البيطار ان الطيهوج اي الدرّاج الا ان صاحب المعجم المنصوري يضعف هذه الرواية بقوله « وزعم ابن سمجون انه (اي الطيهوج) الضُريس ولم يصح . وقد ذكر الافرنج مايقابله عندهم في لسانهم فقال فريتغ هو الطرغلوديس (Motacilla troglodytes) وقال شَرْبُونُو إنه الضخم المنقار (Gros - bec) وذهب پاپني انه الزرزور وهو في نظر (طُرَّة) ويسميه الدرّيس ايضاً طويئر يقيم في الغابات اسمه (pajarillo) او (Triguero) .

جئنا الآن الى معنى الكلمة . فقد رأينا فيما نقلناه من الأقوال ان كثيرين منهم يقولون انه الطيهوج ، لكن الطيهوج غير الحجل ، نعم انه من جنس الحجل اوشبيه به ، لكنه ليس به . فالطيهوج هوالمسمى بلسان العلم (Tetras bosania) لا كما قال احد الادباء انه (Ommoperdrix bonhami) إذن على من يؤلف المعاجم ان يتوخى اصدق المعاني والا لم يبق فيها فائدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم فتحنا بالاتفاق ايضاً الصفحة ١٤٥١ وفيها « الطزر محركة : النبت الصبغي معرب تزر بالفارسية » اه . — قلنا : والكلمة الفارسية (تزر) تعني الآبنوت الصبغي لا النبت الصبغي ، لكن الرجل حاطب ليل ، يحطب فيما يحيط به من محيط المحيط ، فوجد العبارة التي نقلها ، فأدى النقل بامانة ماوراءها امانة . ولم يلتفت الى صحة ما كتب . على ان المعلم بطرس وجد هذا النقل في بعض دواوين اللغة فنقله ، إذ يُرى وارداً في لسان العرب . وخطأ الطبع سهل الوقوع . اما المحققون الأثبات فلم يفسروه الا بما فسرناه اعتماداً على لفظه الاصلي الفارسي .

وذكر في مادة (ط غ م) الطُغْمة . قال « الطُغْمة (وضبطها بالضم) الجماعة امرهم واحد » . فكم غلطاً في هذه الكلمات الاربع ؟ . (١) انه ضبطها بالضم وهي بالفتح . (٢) ذكرها كأنها من حرّ كلام العرب وعتيقه . وهي مولدة . نقلها بُقْطُر وأمثاله ، فدخلت كتب النصارى الدينية . (٣) لم يشر الى انها دخيلة حديثة النقل في لغتنا وهي باليونانية (Tagma) . (٤) قال (الجماعة) ولم يذكر اي "جماعة . أجماعة الناس ، ام الحيوانات ، ام الطير ام السمك . اذ لكل هذه المخلوقات جماعات وقد يكون لها شأن واحد كالحيوانات التي شأنها تقليد حركات الانسان ، وكالطير التي شأنها الطيران على وجه من الوجوه ، وكالسمك التي شأنها نوع من السباحة . فعلى كل هؤلاء البرايا تصدق الجماعة . وكان حقه ان يقول جماعة الناس ، لكن الرجل أراد ان يختصر فقصر . — وفاته ان ينقل من محيط المحيط قوله وعند الحسابيين ما بين الربوة والملك ، وهما [اي الطغمة بمعنى الجماعة من الناس و بالمعنى الحسابي] من كلام المولدين اه . فلاستعجال الشيخ عبدالله في النقل نسي ان ينقل تتمة الكلام ، واهمل قوله من كلام المولدين ، فقطع العبارة ، فجاءت الطغمة انها فصيحة في نظر من يبحث عنها في البستان .

وكلام محيط المحيط بقوله « بين الربوة والملك » أغلق على دوزي . فنقل العبارة ووضع وراءها علامة استفهام كأنه لم يفهم المراد من هذه الرُطَيْنى الغريبة — قلنا والصواب بين الربوة والملك لكن زاد المنضد من عنده ميماً فانقلب الكلام طُمْطُمانيّة .

احتجنا الى ان نطلب معنى (الطقس) اليونانية الاصل فرأيناه يقول مفسراً اياها « الطقس الطريقة . وغلب على الطريقة الدينية (نصرانية دخيلة) » اه . اما عبارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محيط المحيط فهي هذه « الطقس ... يطلق عند النصارى على شعائر الديانة واختلافاتها معرب تكسيس باليونانية ، ومعناها نظام وترتيب ج طقوس » اه . فانت ترى من هذا الكلام ان صاحب محيط المحيط فهم معناها أحسن من الشيخ . لان الطقس الشعيرة الدينية و « الشعيرة واحدة شعائر الحج ، وهي مناسكه وعلاماته وآثاره واعماله وكل ما جعل علماً لطاعة الله » (التاج) وهذه ما يسميه الافرنج (Rit, Rite) او (Cérémonie) اما الطريقة الدينية فهي — على ماعرفها السيد الشريف الجرجاني — (السيرة المختصة بالسالكين الى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات» اه . ومنها الطريقة القادرية والنقشبندية والمولوية والرفاعية والبدوية والسهروردية والشاذلية والسنوسية والدسوقية الى غيرها . وهذا مايسمى عند الفرنجية (Ordre) او (Congrégation religieuse .

وهناك ادلة عديدة على انه يتعسف الامور لجهله قواعد العربية ، فتراه يقول في مادة ع م ر س « العمروس ... ج عمار يس وعمارس وهو نادر كقوله :

اولئك لم يدرين ما سَمَكُ القُرى ولا عُصَبٌ فيها رئاث العمارس » اه .

فأنت تراه يقول « وعمارس وهو نادر » لانها عبارة محيط المحيط ، والقاموس الفيروزابادي . وكأنه يجهل ان فعاليل ومفاعيل وافاعيل قد تحذف منها الياء في الشعر ، كما ان فعالل ومفاعل وافاعل قد تشبع الكسرة في الشعر فيتولد منها ياء وكل ذلك غير نادر بل كثير الوقوع في اشعارهم . ستفاض في منظوماتهم .

قال صاحب التاج في مادة (س ن د) وحديث مسند ، واحاديث مسانيد بزيادة التحتية اشباعاً ، وقد قيل انه لغة . وحكى بعضهم في مثله القياس ايضاً . كذا قاله شيخنا » اه . وقال المذكور في مادة ع ج ج « يوم معج ذو إعجاج . ورياح معاجيج اي ذات إعجاج . وضدها مهاوين . ومعجاج الريح التي تثير الغبار ، كما يصح ان تكون معاجيج جمع مُعِجّ . ومهاوين جمع مِهْوان . وقال ابن سيده يجوز ان يكون جمع مِهْوَن (التاج في هون) .

والظاهر من سرد البيت المذكور انه لم يفهم معناه ، لانه اورد رئاث العمارس التي هي جمع رئة بصورة (رئاث) بمثلثتين قبل الالف وبعدها ، ولامعنى لها يتسق اتساقاً مقبولاً في هذا البيت .!

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن غريب امره انه كثيراً مايعرف الشيء او يحاميه ، ولا يتصور حقيقة مايقوله . فقد ذكر مثلاً في مادة (ع ن ج ر) ماهذا نصابه « عنجر الرجل مدّ شفتيه وقلبهما ثم صات ، والعنجرة بالشفتين والزنجرة بالاصابع » اه . — قلنا هل تصور الاستاذ اللغوي معنى ما كتبه ؟ — لانه اذا مدّ الرجل شفتيه ، وقلبهما ، فكيف يمكنه ان يصوت بهما ؟ ان هذا الامر بعيد الوقوع . والذي ذكره الثقات من أئمة اللغة « عنجر الرجل اذا مد شفتيه وقلبهما » ولم يزيدوا « ثم صات » لان الامر غير ممكن .

ومن جهله احكام هذه اللغة قوله في مادة (ع ز ز) «العنزة، العنز» وهذا لم يرد في كلام رجل فصيح يحسن العربية ، انما يقولها بعض العوام لا غير . وكيف جاز له ان يذكرها في الفصيح وقد تعمد نبذ العامي والمولد والوحشي من ديوانه ؟

ومن غريب امره ان ليس فيه سليقة معرفة الكلام العامي اوفساد الحرف الحوشي ، فتراه يقول مثلاً في مادة (ع ن ظ ز) « عنظز عنظزة ، صات كالعنز » وليس في دواوين اللغة هذه الكلمة ، انما هي من كلام بعض العوام ، الساقط كل السقوط ، فالرجل نقلها عن محيط المحيط . وهذا نقلها عن فريتغ . ولما كانت عبارة فريتغ لاتينية وبطرس البستاني لا يفهم لغة الرومان أوّلها بالمعنى الذي ذكرناه . اما عبارة فريتغ اللاتينية فهي :

(eucurrit Saliens ut capra) ومعناها عدا قافزاً كالعنز ، فأين العدو قفزاً من صوت العنز ؟ — والذي نعلمه ان فريتغ نقل عنظز من كتاب الف ليلة وليلة الذي طبعه هتخت (في ٢ ، ٨٢) ولم يعتبر احد كلام الف ليلة وليلة فصيحاً عالياً حتى يحتج به او يؤخذ به او يدوّن في المعاجم تدوين الفصيح . نعم لو نبّه على انه من العامي لما اعترضنا عليه ، لكننا نعلم انه نفى من معجمه ما كان من هذه اللغة ولذا نعاتبه على خلط الفصيح الصحيح بالمسيخ القبيح .

وليست هذه المرة هي المرة الاولى اعتبر فيها العامي فصيحاً فقد وهم هذا الوهم عشرات ان لم يكن مئات . فقد ذكر العُنْقُب والعُنْقُوت لنباتين . والعنقد والعنقريظ لضربين من السمك وكل ذلك من كلام العوام . وهذا عن فريتغ ، وفريتغ عن بعض المستشرقين الذين قد لا يعرفون العامي من الفصيح ، فنشأت من عدم تحقيق بعضهم هذه الفوضى في اللغة . اننا لسنا من الذين لا يودون تدوين العامي ، بل بالعكس نحب ان يُقيَّد ، لكن نريد ان ينبه عليه لكي يتميز عن الفصيح ، اذ للكلام طبقات بعضها أرفع من بعض ، كما ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للناس طبقات ، وللمعادن طبقات ، ولكل شيء طبقات ، يميز فيها الدون عن الرفيع القدر والثمين . ومن الجهة الثانية ان الشيخ عبدالله اخذ على نفسه ان لا يلتفت الى كلام العوام ، إذن لماذا عاد الى ماحجره على نفسه .

يقول في مادة (ع و ل) في ص١٦٨٣ « ماله عال ومال » وفسرها هكذا : « دعاء عليه . اي كثرت عياله وجار في حكمه » اه . ثم عاد الى هذا الكلام عينه في الصفحة التالية فقال : « ماله عال ولا مال ، اي شيء » اه . وسبب وهمه هذا انه نقل مرة عن قاموس الفيروزابادي (وهي العبارة الاولى) ومرة عن محيط المحيط (وهي العبارة الثانية) ولم ينتبه الى مافعل فخالف بين الشرحين .

ويتفق له انه لا يفهم مايكتب . فقد ذكر مثلاً في الصفحة ١٦٨٤ ماهذا نصه : « العالة ، النعامة وشبهه الظلة يستوي بها الرجل من الشجر يستتر بها من المطر » اه . فظن ان النعامة هنا الطائر المعهود . والدليل انه فصل معناها عن المعنى الذي يليها كما رأيت ، والحال ان المراد بالنعامة هنا شبه الظلة ... كما شرحها لكن جهل المعنى فوقع منه ماوقع . وقد تأثر في عمله هذا صاحب محيط المحيط فقد قال هو ايضاً ، العاله ، النعامة والظلة يستتر بها من المطر . وكان حقه ان يقول : النعامة وهي الظلة ... اوالنعامة اي الظلة ... او النعامة هي الظلة ...

وقال في مادة (ع ي هـ ن) « العيهون نبت طيب » وهي عبارة محيط المحيط وهذا النبت لا يعرفه احد لانه لاوجود له في الكون . والمعروف العرهون لا سواه .

وقال مثلاً في مادة (غ ر ر) « غرَّ الراعي يغُرُّ [كيمدّ) ... رعى ابله ... و — الرجلُ والدابةُ أكلا الغَرْغر [كسبسب] ... اه . واول هذه الاوهام انه ضبط مضارع غرَّ بالضم وهو بالفتح في هذا المعنى الذي يشير اليه . وهناك غلط آخر هو ان معنى غَرَّ يَغَرُّ (المفتوح العين) رعى إبلَهُ الغِرْغِر . فان لم يرعاها هذا النبت ، فلا يقال غَرَّها يَغَرُّها . كذا نقله صاحب التاج عن الصاغاني . — ثم انه وضع الرجلَ والدابةَ على مستوىً واحد . وكيف يقبل العاقل ان يضع نفسه موضع الدابة ؟ والصواب ان الرجل لا يأكل الغِرْغِر بل الدابة لا غير . ثم انه ضبط الغِرْغِر بفتح الغينين المعجمتين وليس للعرب نبات بهذا الاسم . والذي يعرفه السلف بهذا الرسم هو الغِرِغِر بكسرتين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والدليل على ذلك انك لا تجد في كتابه الغَرَغر بفتحتين بل بكسرتين ؟ وقوله وغر الرجل والدابة ، اكلا الغرغر ، كان حقه ان يقول : اكل الغرغر حتى لا يرجع القول الى الاثنين معاً كأنهما شُدّا في قرَن واحد ، او كأن الرجل والدابة هما مما يجمع احدهما الى آخر ، مع الواو هنا ليست واو عطف كما توهمه ، بل واو تقسيم اي انها وردت بمعنى (او) ومثل ذلك ماجاء في لسان العرب ومعجمه وغيرهما . فقد قالوا في مادة (ذ ي ل) ذالت المرأة والناقة تذيل ، هزلت وفسدت . وأذالتها اهزلتها » اه . ولم يقولوهما بالتثنية . وقالوا اذال فلان فرسه وغلامه ، اذا أهانه » اه . ولم يقولوا اذا أهانهما ترفعاً من جعل الواحد في منزلة الآخر . فهكذا يجب ان تكتب الكُتُبُ وتصنف لا كما فعل . اما هو فقد عاد وقالها وهو غلط بيّن .

ولم يفكر ابداً في ان الغِرْغِر (بكسرتين لا بفتحتين كما فعل) ، من الانبتة التي لا تأكلها البشر وان كان ذلك ممكناً . فالغِرْغِرُ على ماجاء في تاج العروس ولسان العرب عشب من عشب الربيع وهو محمود ولا ينبت الاّ في الجبل . له ورق نحو ورق الخزامى ، وزهرته خضراء . قال الراعي :

كأن القتود على قارح اطاع الربيع له الغرغر
وزباد بقعاء مولية وبهمى انابيبها تقطر

اراد اطاع زمن الربيع واحدته غرغرة » اه . وهذا العشب معروف الى يومنا هذا في ديار اليمن واسمه عند العلماء (Lavandula dentata) .

وقال مثلاً في مادة (ك ح ل) « تكحلت المرأة والارض (كذا) واكحالّتا كما كتحلتا في المعنيين » . ومثل هذا التعبير لم يرد في كتاب من الكتب ، بل لم يرد في محيط المحيط نفسه فكيف بلغ به الامر الى هذه الدرجة من تحقير المرأة حتى انه ساواها بالارض .

وقال مثلاً في المادة المذكورة « كَحْل بغير أل ، ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث » ثم قال بعد ذلك « كحل ايضاً السنة الشديدة المجدبة ويجوز فيها المنع والصرف كهند » — قلنا : فكيف منعها في الاول ثم جوزها في الآخر ، والصحيح انه يجوز فيها المنع والصرف فهي كهند . — وفي تلك المادة «ويقال» صرّحت كَحْل اذا لم يكن في السماء غيم . قال سلامة بن جندل :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوم اذا صرّحت كحلٌ فحيُّهمُ مأوى الضريك ومأوى كل فرضوب

والفرضوب هو الفقير » . واي صلة بين خلو السماء من الغيم وبين قول جندل ؟ أفاذا غامت السماء ، كان يمنع على ذلك القوم قرى الضيف ؟ فالمعنى الذي اورد له هذا البيت هو ان كحل جاءت للدلالة على السنة الشديدة ، وهي من معاني كحل ، وليس كما قال . افتدري مافعل صاحبنا ؟ — ذكر هذا المعنى ولم يستشهد بهذا البيت الذي يزيد كلامه قوة وأسراً ، بل ترك اللفظ والمعنى بلا سند ولا عماد من النظيم .

وهناك غرابة أخرى هي انه نسي نص البيت الذي كان انشده في مادة (ص ر ح) . فقد ورد ثم بهذا الوجه شرحاً لقوله « صرحت كحل ، اي أجدبت وصارت صريحة اي خالصة في الشدة . قال سلامة بن جندل :

قوم اذا صرحت كحلٌ بيوتهمُ مأوى الضيوف ومأوى كل فرضوب »

ومن العجيب انه لا يستعمل الفاظ العصر بين الموجهة أحسن توجيه لاتخاذها ، بل يعدل الى الاعتماد على بعض مصطلحات البربر التي لا تعرف الا في ديار المغاربة او في لغتهم ، وما ذلك الا لانها وردت في تاج العروس . نعم لو ذكر جميع الحروف الواردة في التاج من أوضاع العوام التي دوّنها لما لُمناه ، لكنه ينتقي قضاً ويهمل قضيضاً . ذلك مما تأباه النفوس العربية . فقد قال مثلاً في تلك المادة « المُكْحُلَة ايضاً : الآلة يضرب بها بندق الرصاص في لغة المغاربة . يقال « هو يرمي بالمكاحل » وهو مجاز . شبهت بمكحلة العين لما فيها من السواد » اه . ولم يعزها الى قائلها وهو صاحب التاج ، هذا فضلاً عن انه لم يذكر البندقية ولا البارودة ، اللتين هما اصح استعمالاً من المكحلة التي ترادفها ، ثم من قال له ان تفسير الزبيدي هو الصحيح ؟ — نعم قد يصح وجه تأويله و يقبله بعض الادباء او المتأدبين ، لكن هناك فريقاً لا يرضى بهذا التأويل الهزيل . أما الذي يراه الغير فهو ان المكحلة سميت كذلك لان في نحو وسطها حفرة صغيرة كالعين ، تشبه المكحلة ، يوضع فيها البارود الذي يشبه الكحل بلونه ودقته .

الاب انستاس ماري الكرملي
عضو في المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ادبنا القومي

- ٦ -

عود على بدء

الآن وقد فرغنا مما اطرد فيه الكلام من الالمام بتاريخ النهضة اللغوية الحديثة، والعلل في الاختلاف بين لهجات الادباء والكلام في القديم والجديد — نعود مستعينين بالله الى الكلام في ادبنا العام او (الأدب القومي) .

وقبل كل شيء ينبغي ان أقرر ان في مصر والحمد لله أدباً عربياً بارعاً وان فيها شعراء لا يتخلفون عن فحول الشعراء في ازكى عصور العربية ، وان فيها كتاباً لهم من فصاحة البيان وقوة التصرف ما لا يقل عما أثر عن السالفين من أئمة البيان . وأزيد على هذا ايضاً انهم اجدوا على اللغة نفسها بما طبعوا من الالفاظ وما نظموا من الصيغ في اصابة المعاني الحديثة واداء الاغراض الطريفة . ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى في هذا الباب ماجاء به الشيخ حسين المرصفي . وتلميذه البارودي . والشيخ محمد عبده . واللقاني . وسعد زغلول . والمويلحي الكبير . والمويلحي الصغير . ومحمود واصف . وامين واصف . واسماعيل صبري . واحمد شوقي . وحفني ناصف . وحافظ ابراهيم . وخليل مطران . وقاسم امين . ولطفي السيد . وعبد الخالق ثروت . واحمد زكي . والدكتور عبد الحميد بدوي . وطه حسين . وعبد القادر حمزة . والدكتور هيكل . ومحمد المراوي . والمنفلوطي . والسكندري . وعباس العقاد . وابراهيم المازني . ومصطفى صادق الرافعي . وعبد الرحمن شكري . وغيرهم كثير . فانني لم اذكر من ذكرت على سبيل الحصر ، بل على سبيل التمثيل .

ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك ايضاً ان هذه النهضة مازال يعوزها شيئان : الاول ان مابعثت من ادب العرب وماجددت من لغتهم انما ظل دائراً في الخاصة ، على حين ظل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سواد المصريين بنجوة عن تذوق بلاغة العرب ، فعكفوا على ادبهم الذي الممت الى بعضه فياسلف ، والذي سأعود اليه في شيء من التفصيل . والخلاصة انه لم ينبعث احد لتبسيط هذه اللغة وتيسيرها حتى تتعلق بروائعها أذهان جمهرة الناس ، اوعمل على رفع مستواهم حتى يدركوها ويتذوقوا بلاغاتها .

اما الثاني فان جل ماتجدد في اللغة وتطرق منها الى اصابة المعاني الحديثة ، ان لم يكن كله ، انما كان من حظ المعنويات دون الماديات حتى اضطر الخاصة ، بله العامة . الى ان يعوذوا في سبيل الترجمة عنها بالتعريب .

ومما يحسن ذكره هنا ان بلاغة الخاصة لا يتذوقها الا الخاصة وحدهم ، اما بلاغات العامة وأشباه الخاصة فالكل في تذوقها واستشعار حلاوتها بمنزلة سواء .

ولست في هذا المقام بمجشمك ان تطلع على العامة ، بل وانصاف المتعلمين . بقصائد امرئ القيس . وطرفة . والأعشى . ولبيد . والأحوص . وأراجيز رؤبة . والعجاج مثلا . لتمتحن مداركهم وتستخبر أذواقهم . بل أرد لهم من ذلك الشعر المرسل السهل اللين القائمة معانيه في ظواهر الفاظه ، اوهو الشعر الذي يسميه صديقنا شاعر النيل بالشعر (الدباح) اطلع بهذا على العامة وانصاف المتعلمين ترهم حتى ان فهموه لم يتذوقوه ولم يحرك فيهم من الشجن كثيراً ولا قليلاً ، اذ تراه يهز نفوس الخاصة هزاً ، ويحز في كبودهم حزاً !

هلم فانشد العامة وأنصاف المتعلمين قول الشاعر :

اقضي نهاري بالحديث و بالمنى ... ويجمعني والهمّ بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا ... لي الليل هزتني اليك المضاجع

او قول الشاعر :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا ... كلانا على طول الجفاء ملوم

وقوله :

ابكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتهضاً ... بثقل ماحملوني في الهوى قعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبهم ... بين الجوانح لم يشعر به احد

وقول الشاعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حدثوني عن النهـار حديثًا أوصفوه فقد نسيت النهارا

* * *

ومازال يخفي الحب حتى حسبته تنفس في احشائه ونكلما

* * *

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
يا ليت من نتمنى عند خلوتنا اذا خلا خلوة يومًا تمنـانا

* * *

احمامة الوادي بمنعرج اللوى بحياة من ابكاك ماابكاك ؟
اما انا فبكيت من ألم الجوى وفراق من أهوى أأنت كذاك ؟

* * *

ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً وقال القلب أين تريد
وقال لي الغادون ما أنت مشته غداة قطعنا الرمل ؟ قلت أعود

* * *

ولقد وقفت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الديار تلفت القلب

* * *

ياسرحة الماء قد سدت مواردة اما اليك طريق غير مسدود ؟

* * *

وكنت اذا ماجئت سعدى بارضها ارى الارض تطوي اليّ ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

* * *

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقًا في خلال صديقه تسرب اثناء العناق وغابا

* * *

ايا برق ليس الكرخ داري وانما رماني اليه الدهر منذ ليالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالي

* * *

الا ياحمامي قصر دوران هجتما بقلبي الهوى لما تغنيتما ليا
وابكيتماني وسط صحبي ولم اكن أُبالي دموع العين لو كنت خاليا

* * *

أأترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذن لصبور

* * *

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وهانيك دارها

* * *

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وانصاري لديك قليل
وكنت اذا ماجئت جئت بعلة فافنيت علاتي فكيف أقول؟

* * *

يا ليت ماء الفرات يخبرنا أين تولت باهلها السفن

* * *

آخر شيء أنت في كل هجعة واول شيء انت عند هبوبي

* * *

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ما ذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا نفعا

ومن هذا الطراز في اشعار العربية كثير ، فهلم انشده العامة وانصاف المتعلمين ، بل وبعض المتعلمين فلست بواجده متدسساً منهم الى نفس ولا محركاً فيها شجنا ، وهذا على سهولته وانكشاف الفاظه ، ووقوع معانيه اكثرها للآداب العامية !

والوجه في هذا واضح جلي : ذلك ان العلاقة بين الألفاظ والمعاني انما هي علاقة وضعية بحتة ، وان زعم بعضهم (كالصيمري) ان هناك علاقة عقلية بين الالفاظ ومدلولاتها بحيث لو تجرد الانسان وشحذ حسه ، وتخلى عن شواغله لوقع على المعنى من نفس اللفظ ما له به عهد من قبل ، وهذا على بعده وغرابته لا تراه يجدي من الجهة العملية كثيراً ولا قليلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلقد نشأنا نسمع اللفظ وندل (بضم النون) على معناه ، وبحكم التكرار في اللفظ واستحضار المعني ، كلما وقع في السمع ينعقد بينهما تمام الاتصال حتى لايكاد الانسان يجيل المعاني في قرارة نفسه من غير ان تقوم في الفاظها المقسومة لها . اما تصور المعاني مجردة من الفاظها فذلك من الشاق العسير .

ثم ان النفس تستريح الى اللفظ بطول ترديده وتقليب اللسان فيه . ثم ان الألفاظ فضلاً عن دلالتها على معانيها الاصلية بتطاول الزمن والاستعمال كثيراً مانتم على دقائق لاينم عليها غيرها . بل كثيراً مايعجز عن تجليتها الشرح والتفسير .

فاذا كان الخاصة يتذوقون الأدب العربي ويتطربون بروائعه فلانهم تعلموه وحذقوه وسلخوا السنين في حفظه وترديد النظر فيه . كما ان من حذقوا منا الفرنسية او الانجليزية مثلاً ودرسوا آدابها وقلبوا النظر في بدائع آثارها — يستريحون من غير شك ، اليها ، ويطربون بها .

وبعد فأنت تعلم ان العامية هي الفاشية في البلاد . وقد استقرت الفاظها على مختلف المعاني من الزمان البعيد ، وجعلت هي الاخرى تتناول من الدقائق مالايكاد يفي فيه الشرح والتفسير . كما استراحت اليها آذان العامة والخاصة جميعاً بطول الاستعمال وكثرة التكرير . ولأورد عليك طائفة يسيرة من الألفاظ العامية ، لعلك مستخرج من صحيح العربية مايؤدي معانيها ، بل ومانم عليه من الدقائق ، ولكن نفسك لاتستشعرها وتطبعها لحسك الا بعد العلاج الكثير في الزمان الطويل :

تقول : « فلان مزمزق مني » و « فلان ماله كده بينقمص بالعجل » و « الكوز اتلمق منه » و « يادوب نوصل العصر » و « الواد ده ابن حنت » و « يقعد وينجمص » و « خده على مشمه » و « سابه يرن » و « فلان ده قفا » و « قل له ينبط » و « اما راجل مقص » و « وفلان راجل بمكي » و « فلان راجل مرم » و « التين المهبطل » و « كان فلان بيمهطه مهط » و « الولد صبح منيق » و « فلان ده مفلوت عياره » و « المسألة كانت يغمه » و « الولد ده دلوعة » و « استذوق » و « شوف لك قط غمضه » .

وارجو ان تبدل كل مايقع لك من (القافات) في هذه الكلمات (همزات) هذه طائفة من الفاظ العامية يشعرك كل منها معنى خاصاً ، ويجلي في نفسك صورة لايستطيع ان يجليها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليك غيره الابطول الإلف وكثرة العلاج والترديد .

ولقد قلت لك فيما سلف ان للعامة احساسهم وعواطفهم ولابد لهذه ان تختلج ولا بد لهذه ان تترفرق ولا سبيل الى حقنها في الصدور حتى يأذن الزمان فيحذقوا العربية الخالصة ، ويطبعوا ملكاتهم على آدابها فكان لابد لهم من ان ينحتوا آدابهم من لغتهم ويصوغوه من متواضع لفظهم فكان لهم على هذا أدب بارع تلوّن في عدة صور ولوضاع . منها الزجل ، ومنها الادوار ، والمواليا ، والواوات ، والطقاطيق ، والمنولوجات ، والامثال ، والنكات البلدية ، او مايعبر عنه عندهم (بالقافية) والتطرف (القفش) وغير ذلك ولقد احسنوا من هذا في كثير .

واني فوق هذا لأزعم ان لغة العامة تمتاز على لغة الخاصة بشيئين : الاول اننا جميعاً نشأنا في العامية وبها نتحدث ونتقاول في جميع اسبابنا . ولا تستثنى من هذا الخاصة انفسهم . فهي ألصق بنفوسنا وادنى الى طباعنا ، وأقدر على تبيين أغراضنا وتصوير عواطفنا .

والثاني : انه اذا كانت أبلغ مظاهر الآداب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من فنون الاحساس وألوان العواطف وكانت هذه مستمدة مما يلابسنا ويحيط بنا اذ ان لكل مسمى من ذلك في العامية اسماً ، ولكل معنى لفظاً ، لان العامية لا تحرج ولا تتورع ، فان العامية من هذه الناحية أغنى وأعظم ، بالنسبة لنا ، وفراً .

وهنا أرجو من القارئ الا يظلمني فيخلق بين منية الكاتب وبين مجرد تقريره للواقع وانا انما أقرر الواقع في رأيي على الاقل ، اما أمنيتي واماسعادتي كلها فبأن ينقلص ظل العامية عن البلاد بحيث تخلفها على الالسن كلها سيدة اللغات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رسالة الكرم

- ٨ -

« عصير العنب والزبيب »

السُلافة والسُلاف بالضم من الخمر أخلصها وأفضلها وذلك اذا تحلب من العنب والزبيب والتمر بلاعصر ولامرث مالم يعد عليه الماء بعد تحلب اوله . قال الراغب السلافة ماتقدم العصر . وفي المخصص اذا أنقعت الزبيب اياماً فأول ما يرفع من عصارته السلاف ثم يصب عليه الماء فيكون مايخرج منه بعد الماء نَطلا . وفي اللسان والسلاف ماسال من عصير العنب قبل ان يعصر . وسلافة كل شيء عصرته اوله .

الخُرطوم كزنبور اول ما يجري من العنب قبل ان يداس . وقال ابن الاعرابي انه السُلاف الذي سال من غير عصر .

مُجاج العنب ماسال من عصيره .

العُنْفوان ماسال من العنب من غير اعتصار . وعنفوان كل شيء اوله وقد غلب على الشباب والنبات .

الدبس بكسرة وبكسرتين عسل التمر وعصارته وقيل عصارة الرطب وقيل ما تحلب من الزبيب والعنب .

الصَقْر والصَقَر ماتحلب من العنب والزبيب والتمر من غير ان يعصر والصقر الدبس عند اهل المدينة .

السَقْر الدبس ومنه نخلة مسقار يسيل سقرها اي دبسها .

الاسفِنْط بكسر الهمزة مع كسر الفاء وفتحها المطيب من عصير العنب وقيل هي اعلى الخمر وقيل خمر فيها افاويه وقيل هي الخمر بالرومية . قال ابن السكيت وهي الاسفنط وهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اسم بالرومية معرب وليس بالخمر انما هو عصير عنب · ويسمي اهل الشام لاسفنط الرساطون يطبخ ويجعل فيه افواه ثم يعتق وفي اللسان واهل الشام يسمون الخمر الرساطون وسائر العرب لا يعرفونه · ثم قال ومنهم من يقلب السين شيناً فيقول رشاطون ·

تقدم ان النطل ماعلى طعم العنب من القشر وان النَطْل مايرفع من نقيع الزبيب بعد السُلاف ، بعد صب الماء عليه ثانية · والناطل الخمر والجرعة من الماء واللبن والنبيذ · والنِطل بالكسر خثارة الشراب · والمناطل المعاصر التي ينطل فيها ·

النبيذ الشيء المنبوذ والنبيذ مانبذ من عصير ونحوه · والنبيذ مايعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك · يقال نبذ التمر والعنب اذا ترك عليه الماء ليصير نبيذاً فصرف من مفعول الى فعيل وسواء كان مسكراً او غير مسكر فانه يقال له نبيذ · و يقال نبذ النبيذ وأنبذه وانتبذه ونبّذه ونبذت نبيذاً اذا اتخذته · و يقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر ·

الزبيبي بالفتح النقيع المتخذ من الزبيب ·

النَقيع والنَقُوع شراب يتخذ من زبيب ينقع في الماء من غير طبخ · والنقيعُ والمنقع كمكرم كل ما ينقع تمراً كان او زبيباً او غيرهما كالعناب والقراصيا والتين وما اشبههما ثم يصفى ماؤه و يشرب (والنقيع المحض من اللبن يبرد كالمُنقَع والنقيعة) · والنقوع ماينقع في الماء من الليل لدواء او نبيذ و يشرب نهاراً و بالعكس ·

وذلك الاناء منقع ومنقعة وبكسرهما · وفي اللسان والنَقيع والنَقوع شيء ينقع فيه الزبيب وغيره ثم يصفى ماؤه و يشرب · والنقاعة ماأنقعت من ذلك · قال ابن بري والنقاعة اسم ما أنقع فيه الشيء ·

الفقد بفتح فسكون ولايحرك هكذا قال في القاموس وفي التاج وصوب الصاغاني سكون القاف · وقد ضبط في اللسان بالشكل محركاً — شراب يتخذ من زبيب اوعسل و يقال ان العسل ينبذ ثم يلقى فيه الفقد فيشدده وهو نبات يشبه الكشوث وهو نبت يتعلق باغصان الشجر من غير ان يضرب بعرق في الارض ·

القِنديد بالكسر عصير عنب يطبخ ويجعل فيه أفواه من الطيب ثم يفتق و يقال انه ليس بخمر وقيل هو الخمر ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفضيخ عصير العنب . وشراب يتخذ من بسر مفضوخ . والمفضخة بالكسر حجر يفضخ به البسر ويجفف . والمفاضخ الأواني التي ينبذ فيها الفضيخ وقد تقدم . أفضخ العنقود اي حان ان يفتضخ و يعتصر ما فيه .

البُختُج كقنفذ العصير المطبوخ واصله بالفارسية (مبُخته) اي عصير مطبوخ .

الجمهوري بالضم اسم شراب مسكر او نبيذ العنب أتت عليه ثلاث سنين . وفي حديث النخعي انه اهدى له بختج قال هو الجمهوري وهو العصير المطبوخ الحلال . وقال ابوحنيفة واصله ان يعاد على البختج الماء الذي ذهب منه ثم يطبخ و يودع في الاوعية فيأخذ أخذاً شديداً . وقيل انه سمي الجمهوري لان جمهور الناس يستعملونه اي اكثرهم .

الصَعْف والصَعَف شراب لاهل اليمن وصناعته ان يشدخ العنب ثم يلقى في الاوعية حتى يغلي . وقيل هو شراب العنب اول مايدرك وقيل هو شراب يتخذ من العسل . والصَعْفان المولع بشرب الصعف وهو العصير .

الباذق بكسر الذال وفتحها ماطبخ من عصير العنب ادنى طبخة فصار شديداً . قيل اول من وضعه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر .

الخَمْر كفلس ماأسكر من عصير العنب لانها خامرت العقل . وقال ابو حنيفة قد تكون الخمر من الحبوب . قال ابن سيده واظنه تسمحاً منه لان حقيقة الخمر انما هي للعنب دون سائر الاشياء . وفي التاج الأصح عند الجمهور ان الخمر عام اي هو عصير كل شيء يحصل به السكر .

والخمر تذكر وتؤنث والأعرف فيها التأنيث . وذكر في التاج والمصباح ان الاصمعي أنكر التذكير ولكن كلامه في كتاب النخل والكرم يخالف هذا فقد قال فيه : قالوا هي الخمر وهو الخمر مذكر ومؤنث لغتان . وفي اللسان والخمر ماخمر العقل وهو المسكر من الشراب وهي خمرة وخمر وخمور مثل تمرة وتمر وتمور . وفي القاموس الخمر ماأسكر من عصير العنب كالخمرة . وفي المصباح و يجوز دخول الهاء فيقال الخمرة على انها قطعة من الخمر كما يقال كنا في لحمة ونبيذة وعسلة اي في قطعة من كل شيء منها .

وخَمَر الرجل والدابة يخمُره خمراً سقاه الخمر والمُخَمِّر كمحدث متخذ الخمر والخمّار بائعها . و يقال غالت الخمر فلاناً اذا شربها فذهبت بعقله او بصحة بدنه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والغول الصداع او السكر و به فسّر قوله تعالى : « لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون » اي ليس فيها غائلة الصداع . وقال ابو عبيدة : الغول ان يغتال عقولهم وأنشد :

ومازالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

اي توصل الينا شراً وتعدمنا عقولنا .

وعنب خمري يصلح للخمر ، ولون خمري يشبه لون الخمر . وقد تقدم ان العنب يقال له الخمر كما يقال للخمر العنب . و يقال للخمر سويق الكرم . أنشد سيبويه لزياد الأعجم :

تكلفني سويق الكرم جرماً وما جرم وما ذاك السويق
وماعرفت سويق الكرم جرماً ولا أغلت به منذ قام سوق
فلما نزل التحريم فيها اذا الجرمي منها لا يُفيق

و يقال للخمر ام الخل .

السكر بفتح السين والكاف الخمر المعتصر من العنب قال ابن الاثير هكذا رواه الاثبات ومنهم من يرويه بضم السين وسكون الكاف . والسكّار النبّاذ .

الخل كفلس ماحمض من عصير العنب وغيره جمعه خلول كفلوس سمي بذلك لانه اختل منه طعم الحلاوة . يقال اختل الشيء اذا تغير واضطرب . والخل واحدته خلّة يذهب بذلك الى الطائفة منه . وقال ابو زياد جاؤا بخلّة لهم فلا أدري أعنى الطائفة من الخل أم هي لغة فيه كخمر وخمرة . و يقال خلل الرجل النبيذ تخليلاً اذا جعله خلاً . ويستعمل لازماً فيقال خلل النبيذ اذا صار بنفسه خلاً . وتخلل النبيذ في المطاوعة .

قال الأصمعي وان أردت صنعة الخل اخذت من العنب مابدا لك فتنزع ثفاريقه وتلقي بعضه على بعض في جرة وتتركه حتى يجود ثم تصفيه فتعزل ماءه الاول وتصب على النطل من الماء مايغمره فاذا احتاج اليه صفي ماؤه واستعمل وترك الماء حتى يدرك . وقال آخر يصب على العنب مثلاه من الماء و يترك حتى يحذق اي يحمض ثم يصفى و يصب مثلها يؤخذ منه ولم يصف .

وخلل الرجل البسر جعله في الشمس ثم نضحه بالخل ثم جعله في جرة وكذا غير البسر كالخيار والكرنب والباذنجان والبصل . فهو مخلل . والاختلال اتخاذ الخل من عصير العنب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتمر . وفي اللسان والتخليل اتخاذ الخل . والخلاّل كشدّاد بائع الخل وصانعه .

وخللت الخمر وغيرها من الاشربة تخليلاً فسدت وحمضت وخلل شراب فلان اذا فسد وصار خلاً .

وفي المثل ماهو بخل ولا خمر اي لاخير فيه ولا شر . وحكى ثعلب ماله خل ولا خمر اي ماله خير ولا شر .

التجير كزغيف . تقدم ان التجير ثفل كل شيء يعتصر . والتجير ما عصر من العنب فجرت سلافته وبقيت عصارته و يقال هو سفل البسر يخلط بالتمر فينتبذ . وقال ابوحنيفة يقال لما بقي من ثفل العنب التجير . والتَجْر طرح التجير في النبيذ ليشتد وهو الخمر فان طبخ بعد ذلك حتى يؤتدم به و يشرب ولا يغلى فقد ارتب وهو الرُب وأعقد وهو العقيد وكل شيء يطبخ حتى يثخن فقد أعقد . وقال ابوعبيد عقّدته حتى عقد بعقد وهذا في القطران والرب والعسل ونحو ذلك . وقال ابو حنيفة ويسمى ذلك العقيد دبس العنب وهو الطلاء تشبيهاً بطلاء الإبل .

الرُب بالضم الطِلاء الخاثر وقيل هو دبس كل ثمرة وهو سلافة خثارتها[1] بعد الاعتصار والطبخ والجمع الرباب والرُبوب .

وارتُب العنب اذا طبخ حتى يكون رُباً يؤتدم به . قال الأصمعي قال الطائفي اذا أردت صنعة الرُب اخذت من الغريب والأقماعي الفارسي او الأقماعي العربي او النواسي ما بدا لك حين يعقد فتُغْمله وإغماله ان تجعله في غرارة اومكتل فتصب بعضه على بعض فتدعه في الشمس ثلاثاً اواربعاً ثم تفضخه ثم تصفيه وتجعله في قدر مثوقد وقوداً غير شديد وتخرج رغوته وزبده وتطبخه حتى يعقد . وقال غير الطائفي غَمَلَه يغمُله .

وان أردت صنعة المريث[2] اخذت ثفاريق العنب والحبة فهبستها ثم دققتها دقاً شديداً ثم بللتها بفضيخ العنب شيئاً ثم تلته برغوة الرُب ثم شيء (كذا) من رُب تخلط فيها

---

(١) الخثارة بالضم البقية . (٢) لم نجد المريث في اللسان والتاج ولعله فعيل بمعنى مفعول من مرث الشيء في الماء اذا انقعه فيه او من مرثه لينه حتى صار مثل الحساء ثم تحساه و يقال مرثه اذا مرسه في ماء وغيره حتى تفترق اجزاؤه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شيئاً من سويق البلسن وهو العدس فتكبه به . وقال بعضهم المريث يعمل من سويق البلسن ومن الاَيْهَش[١] يعني المقل ومن النطل ومن الثفاربق ومن الحَدَل[٢] والحدل شجرة تكون بتهامة يقال لها الاعاليف فذلك ما كان طحن ثم سقي الرُب والحدل يعمل من الطفق وهو مما وصف الحمَصيص[٣] يرب بعصير العنب ثم يؤكل .

الطلاء ككتاب ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وفي القاموس الطلاء خاثر المنصف[٤] . وقال ابن الاثير هو بالكسر والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب قال وهو الرُب واصله القطران الخاثر الذي تطلى به الإبل . والطِلاء في اللغة كل ما طليت به .

و يقال عقد العسلُ والرُبُّ ونحوُهما يعقِد وانعقد وأعقدته فهو معقَد وعقيد اي غلظ . وكذلك عقيد عصير العنب . و يقال للقطران والرب ونحوه أعقدته حتى تعقَّد . وفي القاموس عقدته تعقيداً أغليته حتى غلظ كأعقدته .

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي

---

(١) البهش رديء المقل وقيل الرطب من المقل والخَشْل يابسه والملج نواه والحثّي سويقه . (٢) في اللسان الحَدَال شجر بالبادية وقال الصاغاني صوابه بالذال .

(٣) في اللسان الحمصيص بقلة دون الحماض في الحموضة طيبة الطعم واحدته حمصيصة وقال ابو حنيفة بقلة الحمصيص حامضة تجعل في الاقط تأكله الناس والإبل والغنم . ولايخفى مافي هذه العبارة من الركاكة والغرابة اللتين تدلان على براءة الاصمعي من هذا الكتاب وقد أشرنا الى ذلك في المقدمة . وانا لم أجد للطفق ذكراً في اللسان والتاج وغيرهما مما لدينا من كتب اللغة .

(٤) والمنصف كمعظم الشراب يطبخ حتى يذهب نصفه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آراء وأفكار

واسطة السلوك

« في سياسة الملوك »

— ومثال رائع من أمثلة الحضارة العربية —

وصف السيد محمد السعيد الزاهري « تلمسان — الجزائر » كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف السلطان ابي حمو موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان (مجلة المجمع العلمي م ١١ ص٩٧ ١٠١) وذهب الى انه « لا يزال مخطوطاً لم ينشر بعد » . والحق ان الكتاب قد طبع في تونس سنة ١٢٧٩ هـ كما ورد في « كشف القنوع بما هو مطبوع » (ص٣٨٧) ويقول زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (م ٣ ص ٢٥٩) انه طبع في الاستانة ايضاً سنة ١٢٩٥ هـ .

اما الطبعة التونسية وهي في (١٧٥ صفحة) بقطع متوسط ، في كل صفحة ٢٦ سطر وفي كل سطر زهاء ١١ أو ١٢ كلمة . وقد عني بتصحيحها الشيخ محمود قبادو ومحمد البشير التواني ، ونجز طبعها « ... بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية في رابع ثاني الربيعين سنة تسعة(؟) وسبعين بعد المائتين والالف من الهجرة » . وصدرت بكلمة نصف بعض نواحي المؤلف زعموا انها ترجمته ، وقد استوعبت صفحة وبعض صفحة ، ومن الخير ان نزوي طرفاً منها على علاته فان فيه حديثاً رائعاً اذا صح كان غرة شادخة في جبين الحضارة العربية يضاف الى مافيها من غرر معلومة وحجول .

ودونك ذلك « الحمد لله . ذكر ترجمة المؤلف ، هو السلطان ابو حم (؟) موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان ، وكان رحمه الله يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال بما هو فوق مواسم العام على ماهو منقول من رح الارواح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن نظم الدر والعقيان فيقيم مدعاة (؟) يحشر لها الناس عامة وخاصة فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وبسط موشاة ، ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالاصطوانات (؟) وموائد كالهالات ، ومباخر صفر ، منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس وتستلذها الاعين . وبعقب ذلك يحتفل المسممون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ويقرب السلطان خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب محوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من ابوابها و برزت منه جارية صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويدها اليسرى على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة . هكذا حالهم الى انبلاج الصباح ، ونداء المؤذن : حي على الفلاح ... » .

وقد أشار الزاهري الى ان النسخة التي بصفها لم يذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض اخبار بني زيان وذكرت معها توار يخها يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانما هو موسى بن حمو (؟) مافيه من شك ، ثم أورد بيتين من قصيدة للمؤلف في الكتاب تأييداً لما ذهب اليه ، وهما :

وانا موسى بن حمو أصلح للملك ولا (؟) يصلح لي
فأنا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهل

والطبعة التونسية تصرح باسم المؤلف في فاتحة الكتاب تصريحاً لا تبقى معه حاجة الى الاستدلال بالشعر وما اليه ، وهذا نص ما جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد . كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف الإمام الملك الهمام الاسد الضرغام امير المسلمين مولانا موسى بن يوسف ابوحمو بن زيان العبد الوادي رحمه الله تعالى . الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال ، وهو الكبير المتعال ، خالق الأعيان والآثار ، ومكور الليل على النهار ... » .

وقول الزاهري « هو موسى بن حمو » من خطإ الطبع فيما يظهر لانه ذكر مراراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أنه موسى ابو حمو كما هو الحق وكما جاء في البيت الذي أورده ، وقد وقع فيه غلط وصوابه كما في الطبعة التونسية :

وأنا موسى وابو حمّو أصلح للملك ويصلح لي

والبيت الثاني الذي أورده إنما يقع في القصيدة قبل هذا البيت بخمسة أبيات ، وفيه : أحنو للطفل ... بدل : فأنا للطفل ... وقد شك في كلمة « الاعتناء » التي جاءت في مقدمة المخطوطة « ... وقرة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء ... » وهي في المطبوعة « والاعتقاب » كما ان قوله « ووصلة الانساب » فيها « ووصلة للانساب » . وقد لاحظت في المطبوعة أغلاطاً كثيرة خفيت على المصححين أو هي من المؤلف ، ولست أريد ان أعرض لتحليل لغته ونمط انشائه فقد قصدت الى غير هذا ولكل مقام مقال .

بغداد : محمد بهجة الاثري

عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطبوعات حديثة

الشرع الدولي في الاسلام

« وضعه السيد نجيب الارمنازي »

— الحكيم في الحقوق والمجاز في العلوم الدولية العليا —

Les principes Islamiques

&

Les rapports Internationaux en temps de Paix et de Guerre .

الناس الاّ اقلهم ، يأخذون الامور بظواهرها ، ويتوهمون الحاضر صورة عن الماضي ، فاذا رأوا أُمة ناهضة خيّل اليهم انها كذلك منذ كانت ، وأخرى عاثرة حسبوا العثار طبعاً فيها ، لا ثقال منه . وهم بعد ينسبون الى الاولى كل محمدة عرفوها . ويلصقون بالثانية كل مثلبة انكروها .

ولقد لقينا نحن العرب من هذا الامرّين . عرّفنا الناس وقد اضعنا تراثنا القديم ، فقاسوا على حاضرنا الباهت ، ماضينا الزاهر ، فجاءت احكومتهم فينا مغلوطة جائرة .

ولقد تفطن لذلك فريق من الناشئين النابهين ، الذين قصدوا في طلب العلم الى دار الغرب ، فجدوا في التنقيب عن أمجادهم الغابرة ، وعلومهم المنسية ، وتناولوا في أُطروحاتهم العلمية طائفة من علوم العرب وآرائهم وأقوالهم التي توافق — من حيث المبدإ والاساس — كثيراً من علوم العصر الحاضر . وقد أشرنا في هذه المجلة الى كثير من هذه الاطروحات القيمة . وبين أيدينا الآن أُطروحة السيد الارمنازي .

والموضوع دقيق ، بل هو ايضاً غريب على السمع وقعه (الشرع الدولي في الاسلام) فهل في الاسلام شرع دولي ؟ وهل كتب العرب في شيء لم تعرفه الامم الاّ في العصور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتأخرة ؟ ام هي خطرات يسوس بها شيطان الغرور في صدور هذه الامم المتناغية بماضيها ، فتكثر من التحدث عن مفاخر ، منها ما كان ، ومنها ما لم يكن . شنشنة معروفة من اخزم ؟ العاجزين ؟

هذا اول مايتبادر الى ذهن القارئ او السامع ، ولسنا ننكر ان مثل هذا البحث يتطلب مدارسة وعناء حتى يستخرج المؤلف من حادثات الماضي ووقائعه ، مايتطبق على ما أسموه بـ « الحقوق الدولية » . غير ان جهود السيد الأرمنازي وعمله ، وخصب التاريخ العربي ، ومنابع السياسة الشرعية الاسلامية ، كل هذا ، ذلل جميع تلك الصعاب . فاذا بالذي كان شكاً يصبح يقيناً ، واذا بالمرتاب يعود مؤمناً ، والمنكر يرجع مقراً ، بعد الحقائق التاريخية التي أتى بها المؤلف .

فهو يسرد الاسس التي يتعين على المسلمين ان يجروا عليها في معاملة غير المسلمين : محاربين او مسالمين ، اشخاصاً كانوا ام دولاً . في دار الاسلام وفي خارجها . ويلم بشريعة الحرب ، ومذاهب المسلمين في القتال ، وفي السياسة العسكرية ، وفي السلم والتحكيم ، والامان والمعاهدات . ثم ينوه بالعلاقات السياسية والتجارية التي أقرها الاسلام ، وفي بعث الرسل والسفراء .

هذه خلاصة بعض الابحاث القيمة التي عالجها السيد الارمنازي . ولقد انفرد دون باقي اخوانه بان نقل كتابه هذا الى العربية بلغة عالية ، وتبسط في البحث فأتى بالحسنيين ، واستحق الشكر مرتين .

عارف النكدي

نشرة الجمعية الخلدونية

« بتونس عن السنة ١٩٣٠ »

اذا قيل للشامي ان في تونس جمعية علمية أهلية لها مدرسة تجهيزية تحوي في قسميها الابتدائي والثانوي نحو ٦٠٠ تلميذ يدرسون العربية لاستغرب الأمر ولما صدق هذا النبأ . ذلك ان انقطاع الصلات بين الشام وتونس جعلنا نعتقد ان هذا القطر العربي مقضي عليه علمياً وادبياً واقتصادياً إن عاجلاً وإن آجلاً . وقد جاءت هذه النشرة تدحض هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوهم وتنبيء بان هـالك نهضة علمية وأدبية لا بأس بها اليوم قد تأتي بانيع الثمار اذا تعاهدها المستنيرون من التونسيين بعزيمة وثبات ·

أسست الجمعية الخلدونية سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) وغايتها نشر المعارف بين التونسيين وارسال بعثات مدرسية الى فرنسة وتأسيس دور للكتب واظهار مدنية العرب للفرنسيين ومدنية الفرنسيين للعرب بنشر جريدة عربية فرنسية ·

وقد جعلها مقام الباي العالي تحت رعايته وانخرط في سلكها كثير من وجهاء البلاد وافتتحت مدرستها منذ ذلك الحين فأخذت تسير الى الأمام سيراً مطرداً حتى قارب عدد تلامذتها اليوم ٦٠٠ تلميذ وصار لديها خزانة كتب تحوي خمسة آلاف مجلد تقريباً منها مخطوطات نادرة · وبلغ معدل الذين يختلفون اليها للمطالعة الف مطالع في الشهر وهو عدد لا يستهان به في تونس ·

واتضح لنا من برنامج الدروس ان المدرسة الخلدونية تعادل الصف التاسع او العاشر من مدارس التجهيز لدينا ، وان فيها علاوة على ذلك محاضرات يلقيها بعض الأساتذة في تاريخ آداب اللغة العربية والاقتصاد السياسي وحفظ الصحة والمواقف الحاسمة في تاريخ الاسلام · وعدد هذه المحاضرات خمس في الاسبوع وهي مباحة لطلاب الفائدة من الأهلين · والجمهور يقبل على استماعها حتى ان عدد المستمعين لايقل عن ٢٠٠ — ٣٠٠ مستمع لكل محاضرة ·

وجاء في النشرة نموذج من تلك المحاضرات يدل على فضل المحاضرين وتضلعهم بالموضوعات التي يعالجونها كمحاضرات الاستاذ ابن عاشور في القاضي الفاضل وفي محمد المويلحي والاستاذ عثمان الكعاك في دبانة ابن المقفع وفي ابي السلط أمية بن عبد العزيز ، والأستاذ احمد المهدي النيفر في الأعشى ·

وجاء فيها ايضاً مقالة في « شهيرات الدور الحنصي » للعالم الكبير حسن حسني عبدالوهاب احد اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق عن كتاب « شهيرات التونسيات » تأليف المومأ اليه وهو لم يطبع بعد ، ومقالة ممتعة عنوانها « مصير الأندلسيين » لمحمد الطاهر بن عاشور كبير اهل الفتيا من السادة المالكية ، وبحث أدبي علمي عن النحل للأستاذ مصطفى الكعاك المحامي ورئيس جمعية قدماء الصادقية ، وفصل في الجاذبية العالمية للأجرام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السماوية بقلم الأستاذ الهادي الكسوري مدرس علم الفلك في الخلدونية ، وكلمة في حفظ الصحة للدكتور محمود الماطري .

فحيا الله جهود اعضاء الجمعية الخلدونية ورئيسها الأستاذ عبدالرحمن الكعاك وحبذا لو طبعوا أهم المحاضرات في كتاب على أجزاء وجعلوا تلك المحاضرات تتناول العلوم المادية أحياناً وزادوا في صفوف المدرسة وعلومها حتى تعادل مدارس التجهيز في الشام ومصر واوربة .

« الشهابي »

تاريخ الحركة القومية

— وتطور نظام الحكم في مصر —

« الجزء الثالث في ٦٣٥ ص من القطع المتوسط »

« تأليف عبد الرحمن بك الرافعي »

من الكتب مالا تكاد تقرأ في واحدها بضع صفحات حتى تحس بقوة عجيبة تطبق جفنيك حثيثاً وتبعث بك الى عالم الأحلام . ومنها التي هي على العكس من ذلك سحارة أخاذة تفعل في النفس فعل النشوق من الأثير فيأبى الجفنان ان ينطبقا الا على آخر كلمة منهما وبودهما لو طالت صفحاتها أضعافا .

وبعدُ ان كتاب الاستاذ الرافعي هو من القبيل الثاني اي من الكتب التي تستهويك بسلاسة عبارتها وغزارة مادتها وسلسلة أبحاثها . ولقد كنت تكلمت في الصفحة ٢٥٣ من المجلد العاشر عن الجزءين الأول والثاني وهما يتناولان بدء الحركة القومية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر اي منذ ما احتل نابليون مصر الى ان ارتقى محمدعلي الكبير أريكة الحكم فيها . اما الجزء الثالث فهو يبحث عن عصر ذلك الرجل الكبير الذي كفل استقلال مصر وشاد فيها صرح القومية الباذخ وكاد يحقق غاية العرب الخامس ببناء مملكتهم الكبرى لو لم تخنه الدول الاوربية وتتألب عليه وبرأسها انكلترا . وهو يحوي ١٧ فصلاً كل موضوعاتها مهمة كالزعامة الشعبية في بدء حكم محمد علي والحملة الانكليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها وانفراد محمد علي بالحكم بعد اختفاء الزعامة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعبية وحرب الوهابية وفتح السودان وحرب اليونان والحرب في الشام والاناضول ومعاهدة لندن والجيش والاسطول والمدارس التي فتحت في مختلف العلوم والبعثات التي أرسلت لتلقي العلوم في اوربة واعمال الإسقاء والاعمال الزراعية والصناعية ونظم الحكومة وأحكامها وحالة مصر الاجتماعية والحكم على عصر محمد علي ·

وختام الفصول فصل في ابراهيم باشا ذلك القائد الباسل الذي يعدّ من اكبر قوّاد العالم والذي كان يجاهر بانه ينوي في فتوحاته إحياء القومية العربية وإعادة استقلال العرب اليهم · وقد نقل المؤلف الفاضل جملة عنه تنطوي تحتها سياسته وسياسة ابيه العظيم وهي « انا لست تركيًا فاني جئت مصر صبيًا ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دمًا عربيا » ·

وكانت فرنسة تساعد محمد علي في سياسته لكنها تخلت عنه بتأثير انكلترا التي كانت من ألدّ أعدائه · وكان حكم المصريين في بلاد الشام أعدل من حكم الأتراك وذكر المؤلف الفاضل رأي بعض مؤرخي الشام في هذا الصدد ولا سيما رأي رئيسنا الجليل صاحب خطط الشام فقد نقل عنه المؤلف بضع صفحات قارن فيها حكم الترك بحكم المصريين وأظهر حسنات الحكم المصري في الشام وبين كيف قضت الدسائس الاجنبية وخاصة الانكليزية على فكرة الدولة العربية الكبرى ·

والخلاصة ان الجزء الثالث من سفر الاستاذ الرافعي هو أثمن موجز تاريخي لاعمال محمد علي العظيمة وهو من الدروس الوطنية التي يجب على كل شاب مستنير تلاوتها بامعان ·

« الشهابي »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حركات الاعراب

« في اللغة العربية »

— فائدتها ، من اين جاءت ، كيف وضعت ، آخر عهد البادية بها —

من البديهي ان مفردات اللغة مؤلفة من الألفاظ وان مادة اللفظ لا تتعدى حروف الهجاء . ولكن للحروف هيآت في اللفظ من حركات وسكون يُطلق عليها على سبيل التغليب اسم الحركات ، وهذه الحركات اما عارضة لمادة الكلمة ومبناها ، او عارضة لآخرها . وتسمي الاولى حركات المباني كما في حركات غَمْر غِمْر غُمْر غَمِر غَمَر غُمَر فهذه الكلمات الست مع اتفاقها في الحروف وترتيبها مختلفة المعنى باختلاف حركاتها اختلافاً من أصل الوضع .

وتسمي الثانية حركات الاعراب او (علامات الاعراب) لانها تعرب عن مراد المتكلم بموقع الكلمة من الجملة ، ولا تؤثر هذه الحركة بمعنى الكلمة الوضعي شيئاً ، فسعيد في قولك رأى سعيد احمد هو سعيد نفسه اذا رفعته فاعلاً او نصبته مفعولاً به ولكن حاله واقعاً منه الفعل غير حاله واقعاً عليه الفعل وانما يعرف اختلاف حاليه من اختلاف حركات الاعراب .

فائدتها

ان هذه الحركات تؤثر أثرها في المعنى التركيبي خاصة وتعطي الجملة ايجازاً بديعاً لامثيل له في غير العربية من اللغات فيما أحسب والايجاز في اللفظ مع الوفاء بالدلالة على المراد من أعظم ميزات اللغة . انظر الى قولنا ما أحسن زيداً فانك تجد لهذه الكلمة ثلاثة معانٍ تختلف باختلاف الحركات في أواخر كلماتها مع بقاء مبانيها وتراكيبها اللفظية كما هي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتقول ما أحسن زيداً بنصبها وانت تريد التعجب فيكون فاعلاً مقام قولك أعجب كثيراً لحسن زيد . (٢) وتقول ما أحسن زيد برفع أحسن وخفض زيد وانت تريد الاستفهام وهو قائم مقام قولك استفهم عن أحسن شيء في زيد . (٣) وتقول ما احسن زيد بفتح أحسن وترفع زيداً وانت تريد الاستفهام ايضاً وهو قائم مقام قولك استفهم عن ماهية احسان زيد .

ثم انظر الى قولنا هذا كريم أحسن منه عالم فاذا رفعت كريماً وعالماً كان المراد بهما شخصين اثنين احدهما كريم والآخر عالم ولكن العالم أحسن من الكريم واذا نصبتهما كانا شخصاً واحداً عالماً وكريماً لكنه في كرمه أحسن منه في علمه .

وانظر الى قولنا كم كتاب قرأت فاذا رفعت كتاباً كنت مريداً الاخبار بكثرة ماقرأت من الكتب واذا نصبت كنت مريد الاستفهام على حقيقته .

قال ابن قتيبة في كتابه مشكلات القرآن مانصه :

« وللعرب الاعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها وحلية لنظامها وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما اذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل ان يكون لكل واحد منهما — الا بالاعراب ولو ان قائلاً قال هذا قاتلٌ اخي بالتنوين ، وقال آخر هذا قاتلُ اخي بالإضافة لدل بالتنوين على انه لم يقتله وبحذف التنوين على انه قتله .

ولو ان قارئاً قرأ : فلا يحزنك قولهم انا نعلم مايسرّون وما يعلنون . وترك طريق الابتداء بانا واعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب ان بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعني على جهته وأزاله عن طريقته وجعل النبي محزوناً لقولهم ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون وهذا كفر ممن تعمده وضرب من اللحن لايجوز الصلاة به . وقال رسول الله (ص) لايقتل قرشي صبراً بعد اليوم فمن رواه جزماً أوجب ظاهر الكلام ان لا يقتل إن ارتد ولا يقتص منه ان قتل . ومن رواه رفعاً انصرف التأويل الى الخبر عن قريش انه لايرتد احدٌ منها عن الاسلام فيستحق القتل . ألا ترى الى الاعراب كيف فرق بينها » . ثم قال : وقد تكتنف الشيء معانٍ فيشتق لكل معنى منها اسم من ذلك الشيء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كاشتقاقهم من البطن الخميص (مبطّن) وللعظيم البطن اذا كان خلقة (بطين) فان كان من كثرة الاكل قيل (مبطان) وللنهوم (بَطِن) وللعليل البطن (مبطون) انتهى ·

في كل هذا انما اختلف المراد باختلاف الحركات الاعرابية مع ان الجمل المذكورة لم يتغير شيء من تركيبها وتنسيقها غير علامات الاعراب ولكن المعنى التركيبي قد تغير معها تغيراً لا يستهان به كما سمعت من كلام ابن قتيبة ·

وكذلك اذا قلت علّم زيد خالد الكتاب لا تعلم ايهما المعلم وايهما المتعلم فاذا رفعت ونصبت عرفت ان المرفوع المعلم والمنصوب المتعلم تقدم او تأخر لا فرق وبقي للتقديم والتأخير افادته الخاصة من البيان · فاذا طرحت الحركات جانباً وجعلت الدلالة على الفاعل تقدمه وعلى المفعول به تأخره على ان تجعل الفاعل واجب التقديم مطلقاً كما اذا كانا مقصورين — فانئذ النكات البيانية والمعاني التي يأتي بها تقديم المتأخر او تأخير المتقدم وهي افادات تأتيك من ترتيب الجملة دون زيادة في اللفظ وهذا من خصائص العربية فيما أحسب وقد أسهبت القول قليلاً في فوائد الاعراب في اللغة ليُعلم ان القول بتفضيل اهمال الحركات على استعمالها لان المعنى لا يفسد باهمالها فكل أبناء العربية يفهمون من قولنا زيد مسافر بالتسكين كما يفهمون زيد مسافر بالتحريك — ليعلم ان هذا القول — عجيب لاسيما من علامة مدقق ذي غيرة على الفصحى كصاحب المقتطف · وقد ظهر مما تقدم من القول ان كثيراً من الجمل اذا اهمل فيها الاعراب اشتبه على السامع فهم معنى الجملة لانها تحتمل معاني لا يميزها الا الاعراب او إطالة الجملة بكلام يدل على المعاني المرادة ·

من اين جاءت

من الحقائق التي لا أحسب ان فيها جدالاً او يكون فيها جدال غير معتدّ به ان العرب الذين قلّ امتزاجهم بغيرهم من الامم كانوا أحفظ لجدّة اللغة ولقديمها من غيرهم لان الامتزاج بغير اهل اللغة من اكبر الاسباب في تطور اللغة فنشوء اللغة العربية من أم اللغات السامية لم يكن فيه من التغير ما كان في أخواتها فهي اذاً على هذا أقرب اللغات السامية من لغة الام · وهذه الحقيقة ليست بغريبة عن استنتاج العلماء فقد ذكرها كثير من الباحثين كمسألة لاتحتمل الجدال ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم انه جاء في التاريخ القديم ان اللغة التي انتشرت في المملكة البابلية الاولى قبل زمن حمورابي بعشرين قرناً او اكثر (وهي ام اللغات السامية) كانت ذات حركات للاعراب وانها فضت اكثر من الفي سنة وهي ذات حياة في سجلات الحكومة ودواوينها وعلى السنة العلية من القوم قال مسبيرو (Maspero) ان اللهجة المصقولة التي كان كتبة نينوى و بابل يستعملونها في عهد هيردوتس لانشاء الكتابات الرسمية كانت منذ زمن طويل مايشبه لغة نبيلة يفهمها نخبة الناس وتجهلها العامة وكان العامة من سكان المدن والقرويون يتكلمون باللهجة الارامية التي كانت أثقل من تلك » وكلام مسبيرو ظاهر في ان لهجة العامة من سكان المدن والقرى (اهل الحاضرة) كانت الارامية ولكن لهجة سكان البوادي (اهل البادية) ما كانت ؟ ؟

ان اهل الحاضرة هم الذين امتزجوا بغيرهم من الامم فاستعجمت لغتهم بهذا الامتزاج وكانت منه اللهجة الارامية (العامية البابلية) كما امتزج بعد الاسلام اهل الحاضرة من العرب بغيرهم من الامم فاستعجمت لغتهم وكانت منه لهجتنا العامية .

وكذلك ضيّع الاولون حركات الاعراب باستعجام لغتهم وكانت هذه اول شيء أضاعوه منها بدليل ان اللغة الفصحى الاولى (الام) ذات الحركات الاعرابية انما فقدتها في سكان الحواضر والمدن والقرى الذين تطوّرت لغتهم فكانت منها الارامية (السريانية القديمة) وهي ليست بذات اعراب ، ولم يفقدها سكان البوادي فكانت لهم لغة بدو الارامبين (وهي العربية) تزدهي باعرابها الذي رأيناه ملكة راسخة فيهم مثلما ضيّع الآخرون حركات الاعراب باستعجام لغتهم وكان هذا اول شيء أضاعوه منها ، بدليل ان اول انحراف وقع في اللغة كان في خلافة عمر (رض) لما جاء الاعرابي يتعلم القرآن في المدينة فسمع اللحن في الحركات الاعرابية وانكره ولو سمعه في غيرها لما سكت عنه فكان بذلك نصيب سكان البوادي الأولين كنصيب سكان البوادي الآخرين من حفظ اللغة بحركاتها الاعرابية مااستطاعوا اليه سبيلاً وبقدر مابعدت عنهم الامم الاخرى وهكذا نقيس بين العصرين بقياس التمثيل ونعلم حال القديم الذي لم نره ولا تحققنا خبره بحال الحديث الذي عرفناه وتحققناه ونطمئن الى القول بان حركات الاعراب التي كانت في اللغة الاولى (الام) قد حفظتها لها البداوة والبعد عن الامم الاخرى حتى ظهرت في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عربيتهم الاخيرة وقد خلت منهـا اللغات الاخرى الاخوات الا آثاراً في لغة بطراء ولغة تدمر لان اهلها من بقايا العمالقة[1] ثم نقول :

لكن بدو الاراميين الذين سكنوا البادية العربيـة والذين سموا عرباً لارتحالهم عن الوطن الاول غربا[2] لم تذهب منهم هذه الحركات او اشباهها بدليل وجودها عند أعقابهم يوم اخذت اللغة عنهم وبدليل انها كانت حينئذ راسخة فيهم رسوخ الملكة في النفس تجري على السنتهم في موافعها دون قصد ولا كلفة ولا تعمل مما يدل على طول عهدهم بها حتى أصبحت جارية مجرى الطبع .

فهذه الحركات اذاً متصلة الينا من ميراث اللغة الاولى امّ لغتنا العربية حفظتها لنـا البداوة وبُعد حامليها عن الامتزاج بغيرهم من الاعاجم .

قلنا ان هذه الحركات كانت في العرب اتصلت في الاعقاب على مدى الاحقاب حتى وصلت الينا وسواء أكانت هي كما هي او دخلها التطور جرياً على سنن الكائنات فهي لم تكن عينها فليست بعيدة عنها بل هي في واديها ربيت ونشأت وعلى غرارها طبعت وبدرها غذيت والقول بان العرب عرفوا هـذا بمعرفتهم النحو وانهم احتذوا فيه مثال اليونانيين فلا أراني كثير الحاجة لدفعه لان الالمام باحوال العرب قبل الاسلام فضلاً عن الاضطلاع بها يكفينا امره . واني لسكان البادية بمعرفة قواعد النحو كعلم من العلوم وقد سئل اعرابي اتجر فلسطين؟ فقال انني إذن لقوي فقيل له اتهمز اسرائيل فقال انني اذاً لرجل سوء . ففهم هذا البـدوي وهو ممن يوثق بعربيته ويتخذ الائمة كلامه حجة في النحو واللغة — فهم الجر والهمز بمعناهما اللغوي ولم يكن للاصطلاحي اقل مساس بفهمه وعلمه .

وان الاعرابي القادم من البادية الى المدينة ليتعلم القرآن وهو بعد لم يبلّ بفساد اللسان — عرف تغير المعنى بتغير حركة (ورسوله) من الرفع الى الجر لا من حيث انهما رفع وخفض بل من ان في افادتها مرفوعة معنى مغايراً لما تفيده مخفوضة .

* * *

(١) العرب قبل الاسلام . (٢) العلامة فانديك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كيف وضعت

ان الذي عليه المحققون ان وضع اللغات لم يكن بالتنصيص على لفظ خاص لمعنى خاص وانما كان الوضع بالتوسع في الاستعمال على قدر الحاجة وامتدادها وتنوعها بامتداد الزمن وتطاول المدة وعلى حسب ما هو معروف من سنن التطور الجاري على الالسنة و يبعد في مثل هذه الحال ان توضع الحركات الاعرابية بمثل هذا النحو من الوضع وان تكون على هذه الطريقة لان الحركات الاعرابية على ما هو الظاهر ليست مما تدعو اليه الحاجة الماسة بان تكون ركناً من أركان التفاهم لا يتم بدونها حتى يقال انها جاءت على قدر الحاجة اليها ثم نمت وامتدت كما يصح ان يقال هذا في الكلمات ولهذا تجدها لا تطرد على لسان من لم يتعودها دون مران او ممارسة فكيف كانت اذاً هذه الحركات الاعرابية (او علامات الاعراب) هل هي بقايا كلمات كانت تدل ماتدل عليه علامات الاعراب ثم اختزلت بتطاول المدة وصقلت بالاستعمال فصارت كما نراها . يقول بذلك كثير من العلماء . وجاء في المقتطف[1] ما نصه « يستدل من علم اللغات ان اصل هذه الحركات كلمات فاختصرت على تمادي الزمن وبقيت هذه الحركات دلالة عليها » ولكن هل كانت هذه الكلمات التي هي اصل هذه الحركات خاصة بام اللغة العربية المعربة وفي حيزها اختصرت هذا الاختصار او انها كانت قبلها في أمها الاولى ثم جاءت الى أم اللغة العربية المعربة بالارث ؟ وعلى تقدير انها كانت في اصل الفرع الاسيوي الاول الذي منه كانت اللغات السامية والآرية والمغولية وأخواتها فهل اصابها الاختصار كله او بعضه قبل انفصال السامية (ام العربية) عنه او انه كان من صيغ اللغة السامية . ربما يعرف ذلك و يكشف هذه الامور ويحل هذا الاشكال الباحثون في مقابلة اللغات وتحليلها اذا تسنى لهم وكان في اخوات العربية وخالاتها ماينير لهم الطريق بان يكون لهذه الكلمات (الاعرابية) مايدل عليها او يشير اليها في هذه اللغات .

اما اذا كان هذا مجرد حدس وتخمين فللحدس والتخمين مجال ايضاً في غير هذا

---

(١) مجلد ١٩٢٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الطريق وحينئذ يجوز لذاهب ان يذهب الى ان هذه الحركات الاعرابية ربما تكون وضعت بوضع خاص وذلك بان يقال ان ابناء اللغة الاولى كانوا في تمدنهم وعلومهم في منزلة صالحة تدل عليها آثارهم . وقد دلت الآثار انه كان للبابليين مدارس منظمة يعلمون فيها الحكمة والطب والفلك والحساب ، وظهر في الآثار من آثار هذه المدارس جداول الضرب الحسابية التي كانت تدرس فيها ، واخبرنا التاريخ عن مزيد عنايتهم بلغتهم الفصحى التي حفظوها واتخذوها اللغة الرسمية وكانت مصقولة مهذبة كما يدل عليه كلام مسبيرو المتقدم وانها كانت لغة النخبة والطبقة العليا .

فلا يبعد والحال هذه عن الذين صقلوا لغتهم وهذبوها ان يكونوا في جملة صقلها وتهذيبها وتحريهم البلاغة فيها تعمدوا الاختصار في الكلام مع الوفاء بالدلالة على المراد مما يسمونه اليوم بالايجاز وهو من أعلى ضروب البلاغة ومن جملة هذا الاختصار وضع العلامات الاعرابية وهي حركات في الغالب لا تطول بها الجملة ولا تنتفخ ولا يتغير بها وضع الكلمة فدلوا بها على مرادهم من الكلمة في جملتها فاعلة او مفعولة او غيرذلك . مقدمة او مؤخرة لتدل في التقديم والتأخير على معنى مراد ، وان يكون ذلك جرى في مجامع لهم خاصة او عامة ، او من جماعات او أفراد لهم محل المقتدى به في الامة فأخذه عنهم عليه القوم وتبعهم في ذلك المقتدون المتشبهون بهم وجرى مجرى الاستحباب اولاً ثم أصبح عادة وتقليداً ثم ملكة راسخة و يكون ذلك منهم حيث قل انتشار الفساد في اللغة . وسرى ذلك في سكان البادية فحفظوه وجروا عليه ولنفرض لذلك مثلاً فنقول استعمل أبناء اللغة ما الاستفهامية بدلاً من اي شيء فاشتبهت بما التعجبية ووقعت أفعل بعدها كاحسن في قولك ما أحسن زيداً . واشتبه على السامع اي المعنيين يريد المتكلم آ الاستفهام ام التعجب ونصبُ القرينة اللفظية كزيادة اللفظ تطويل والمفروض اننا فررنا منه فحركوا حينئذ ماوقع بعد ما التعجبية بالنصب ومابعدالاستفهامية بالرفع وليس في ذلك مشقة ولا تطويل . وكذلك كان الفعل يكون من فاعل لا يكون مفعولاً به وعلى مفعول به لا يكون فاعلاً ، وفي مثل هذا لا يشتبه الفاعل بالمفعول به سواء أتقدم ام تأخر مثل كسر الزجاج الحجر ونظم الشاعر قصيدة . وتبقى اعتبارات التقديم والتأخير البيانية صالحة في مثله ، ولكنهم وجدوا الفعل وكثيراً ما يكون يقع من فاعل يصح ان يكون مفعولاً به ، وعلى مفعول به

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يجوز ان يكون فاعلاً وقد تقضي الاعتبارات البيانية التي هي حلية اللغة تقديم المفعول به على الفاعل للاهتمام به او لغير ذلك من الأسباب البيانية فيحتاج والحال هذه الى ما يميز الفاعل عن المفعول فجاؤا بالحركات الاعرابية فكان المرفوع في مثل هذا تقدم او تأخر فاعلاً والمنصوب مفعولاً به . ولعل مثل هذا احتاج الى مدة متطاولة وبعد اختلافات كثيرة بين الأصقاع والقبائل في الاستعمال حتى استقر وثبت منه الاحسن والأصح في الاستعمال فعمّ وشاع وذهب ما عداه .

وان القول بالكلمات المختصرة الى الحركات يعترضه صعوبات كبيرة في تعليل هذا الاختصار وتطبيقه على حركات الاعراب لا يمكن تذليلها الا بتكلف كثير ، واذا رأينا من السهل مثلاً ان نقول ان علامة الرفع (الضمة) اختصرت من الكلمة التي تدل عليها الى الواو الذي هو علامة للرفع ايضاً ثم اختزل الواو الى الضمة ، فلسنا نرى من السهل تطبيق ذلك على غير هاتين من علامات الرفع كالالف وثبوت النون وكذلك الحال في النصب وعلاماته والخفض وعلاماته والجزم وعلاماته .

كما يعترض الحدس المفروض للوضع الخاص ان هذه العلامات نراها اول ما يذهب في اللغة عند امتزاج اهلها بغيرهم وان صيرورتها الى الملكة من الوضع الخاص في أمة لم تكن بعيدة عن الاختلاط في غيرها بقدر ما يفرض لها من البعد — امر لا يقبله العقل بسهولة وبدون مشقة .

وكيفما كان الحال فقد اتصل الينا ام ان اللغة العربية أورثتها نظام الاعراب بالعلامات فنقف عند هذا القدر المحقق من البحث ونترك ماعداه للمحققين في اللغات حتى يظهر البحث ما تطمئن اليه النفس فيه . وتحقق لدينا ان العرب (بدو الارامبين) اتخذوا هذا الميراث وجرى فيهم مجرى الملكة وهم في عزلتهم فلم يتسرب اليهم الاهمال وحفظته لهم البادية فلم يؤثر فيه عندهم ما اثر فيه عند اخوانهم .

كما حفظت البادية البعيدة عن الامصار هذه اللغة الفصحى الى زمن ظهور الاسلام وفي صدره برونقها وبهجتها وصونها من اللحن الطارئ على ألسنة العرب المجاورين للاعاجم كان ذلك حتى أصبحت هذه الحركات ملكة طبيعية ثابتة في ألسنتهم . وليس معنى قولنا هذا انهم لا يقدرون على اللحن كما كنا نتلقاه من مشايخنا زمن الدراسة بل معناه ان السنتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تجري بلا تعمل ولا كلفة على هذا النظام شأن من يتمرن عليه في هذه الايام فينطلق به لسانه دون تعمل ايضاً ، ولئن كان لا يسلم متمرن اليوم من الخطإ الذي يكثر و يقل بحسب مرانه وتعود لسانه فلأن مرانه ناقص من حيث انه يتمرن في بيئة ملؤها الخطإ والغلط وعلى العكس متمرن ذلك العصر الذي كان في بيئة كلها صواب وصحيح .

ان سكان هذه الجزيرة اتخذوا حفظ هذه اللغة على هذا النحو تقليداً لهم في التجاوز عنه العيب والعار ، ولا ترسخ عادة في قوم ما لم تتخذ تقليداً مستحباً يعاب تاركه على تركه فتمرنوا عليها مراناً تاماً يشب عليه الصغير و يشيب عليه الكبير حتى أصبح عاماً شائعاً بين صغيرهم و كبيرهم عالمهم وجاهلهم ولم يحجم النقلة من الأئمة الآخذون اللغة عن الاعراب ان يعتدّوا بلغة الصبيان والمجانين لانهم آمنون على ملكاتهم من الخطإ فكان بعضهم يحتج لمذهبه بكلام امثال هؤلاء فلا ينكره عليه منهم منكر .

قال ابن دريد في اماليه عن الاصمعي قال سمعت صبية يحمي ضربة يتراجزون فوقفت وصدني عن حاجتي واقبلت اكتب ما أسمع واذا شيخ أقبل فقال أتكتب عن هؤلاء الاقزاع الادناع ؟

لم يحجم الاصمعي وهو الامام اللغوي عن ان يكتب عن هؤلاء الاقزاع الادناع لانه يرى في كلامهم حجة . وقول الشيخ أتكتب الخ مستنكراً . ما هو الا استصغار لامرهم واحتقار لشأنهم من حيث انهم أقزام أدناع (من صغار الناس وأراذلهم) لا من حيث انه مخطئ او مصيب بالاخذ عنهم فهو نظير ان تختار لامرك حاذقاً فيه ولكنه صغير المنزلة دنيء الحسب مستقذر العيش مع انك لا تعدم حاذقاً مثله رفيع المنزلة كريم الحسب ظاهر المروءة فيصح حينئذ لمن يغار عليك ان يلومك على هذا الاختيار وليس معنى لومه الطعن في حذق من اخترته بل الطعن فيه من حيث نفسيته .

* * *

آخر عهد البادية بها

ان هذه الملكة الراسخة في نفوس هؤلاء الاعراب لحفظ اللغة باعرابها اهملت في القبائل المجاورة للأعاجم الكثيرة الاختلاط بهم ولم يسمع عن احد من العرب الجاهليين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان الائمة تحرزوا عن الاحتجاج بلغته قبل عدي بن زيد العبادي الذي نشأ بين أيدي ملوك الفرس .

فسدت لغة اهل الاختلاط والامتزاج بالامم الاخرى وكانت قوة هذا الفساد وضعفه تابعين لقوة الاختلاط وضعفه ثم سرى الفساد من الحاضرة الى البادية بقوة الامتزاج والاختلاط سرياناً تابعاً لهذه السنّة وكانت السلامة للتقهقر امام هذه القوة وبقي هذا الغزو مستمراً الى أخريات القرن الثالث للهجرة وما بعده بقليل حتى ذهبت هذه الملكة او كادت وعم اللحن أقطار العربية باديها وحاضرها الا قليلاً لا يعتد به .

وصينت اللغة الفصحى المعربة في دفاتر العلماء والادباء وفي المجامع الادبية وعلى السنة الشعراء والخطباء والكتاب .

احمد رضا
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المحاضرتان السابعة والثامنة

ثقافة الجاحظ (١)

—«»—

مرّ بنا ان الجاحظ طلب العلم في ابتداء امره في كتّاب والظاهر ان الكتاتيب كانت شائعة في عصر الجاحظ فكان يتردد اليها اكابر علماء اللغة أمثال النضر بن شميل وابي محمد اليزيدي وابي زيد الأنصاري احد أساتيذ الجاحظ حتى قال النضر بن شميل : كنا ثلاثة في كتّاب ، انا وابو زيد الانصاري وابو محمد اليزيدي .

فاذا كانت كتاتيبهم في تلك الايام الطيبة على نحو كتاتيبنا في هذه الديار لا تطلع عليها شمس ولا يهبّ في نواحيها نسيم فمن ظلمة الكتّاب الذي ترعرع فيه الجاحظ انبلج ضياء أضاء مدارك العرب احد عشر قرناً ولا ندري الى اي قرن يمتد .

ولكن من الذي يعلمنا كيف انصرف الجاحظ من بعد خروجه من الكتّاب الى التوسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة ومن الذي رغّبه في هذا التوسع فاننا نجهل هذا كله وانما نعلم ان اباعثمان قرأ على طائفة من العلماء لم تغب عنا اسماؤهم واذا علمنا هذا هان علينا ان نعرف كيف نما عقل الجاحظ فلسنا نرتاب بان لأساتيذه اثراً بليغاً في نمو عقله وامتداد ثقافته .

من هم أساتيذ الجاحظ ؟

سمع الجاحظ من ابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري واخذ النحو عن الاخفش

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي تي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبي الحسن وكان صديقـه واخذ الكلام عن النظّام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد [1] .

لقد كشف لنا هذا النبأ الغطاء عن ثقيف الجاحظ فاذا بحثنا عن خصائص الرجال الذين روّضوا عقل أبي عثمان ونقبنا عن المذاهب التي عرفوا بهـا استنبطنا من مبحثنا ان للجاحظ أربع ثقافات : تفقهه في اللغة والأدب والدين والعلم .

اما اللغة وربما كانت هذه الناحية أعجب نواحي الجاحظ فقد اخذها عن اهلها الذين لم يفسد بيانهم شيء من العجمة فاذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة ما لم يملك غيره من الكتّاب فان لمخالطته عرب المربد سراً في هذه الفصاحة وسننظر في هذا كله في كلامنا على لغته .

واما الأدب فقد خرّجه فيه رجال كانوا مضارب الامثال فيه واذا قلنا الادب أردنا بهذه اللفظة ما كانوا يريدونه بها في عصر الجاحظ فالأدب كان يتضمن أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شابه ذلك .

وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه .

فلننظر في كل من اساتيذ الجاحظ نظرة عجيلة حتى نلمّ الماماً بعقول الذين ثقّفوا رجلاً مثل الجاحظ فان الإلمامة من هذا الشكل تمهد لنا مجازاً الى الاطلاع على أسرار عبقرية الجاحظ لاننا اذا علمنا ان اباعثمان قرأ على أشياه النظام وابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري والأخفش ابي الحسن واخذ اللغة عن عرب المربد سهل علينا بعد هذا كله أن ندرك سرّ هذه الآفاق التي تبسّط فيها الجاحظ واذا أضفنا الى معرفتنا هذه مانعرفه من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها في حياته ومن وَلَعه بالكتب على وجه عام لم تشكل علينا نشأة هذه العبقرية الفتانة .

من هو ابوعبيدة ومن هو الاصمعي ومن هو أبو زيد الانصـاري ومن هو الأخفش ابوالحسن ومن هو النظّام وما هو رأي الجاحظ في اساتيذه ؟

---

(١) معجم الادباء (الجزء السادس ص٥٦) مطبعة هندية بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلنبحث قبل كل شيء عن جماعة العلماء الذين تولوا تثقيف الجاحظ من ناحية الأدب وأزيد بهذه الجماعة أباعبيدة والاصمعي وأبا زيد الانصاري والأخفش اباالحسن ولنذكر على سبيل الايجاز آراء اهل عصرهم فيهم[1] .

اما ابوعبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري فهو الذي قال فيه الجاحظ نفسه : لم يكن في الارض خارجي ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم منه .

وقد كان ابونواس يتعلم منه و يقول فيه : ذاك أديم طوى على علم .

أقدمه هرون الرشيد من البصرة الى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة وقرأ عليه اشياء من كتبه .

وقد كان الفضل بن الربيع يقول : هذا علامة اهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه . الا انه كان سيء العبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة .

وقد كان جبّاهاً لم يكن بالبصرة احد الا وهو يداجيه و يلقيه على عرضه .

خرج مرة الى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة فان كلامه كله دق ثم حضر الطعام فصبّ بعض الغلمان على ذيله مرقة فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق وانا اعطيك عوضه عشرة ثياب فقال ابوعبيدة : لا عليك ، فان مرقك لا يؤذي ، اي مافيه دهن فقطن لها موسى وسكت .

وكان الأصمعي اذا أراد الدخول الى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك يعني أبا عبيدة خوفاً من لسانه .

ولما مات ابوعبيدة لم يحضر جنازته احد ، لانه لم يكن يسلم من لسانه احد، لاشريف ولا غيره وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل الى مذهب الخوارج وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام .

كانت ولادته سنة عشر ومائة في الليلة التي توفي بها الحسن البصري .

وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة وقيل سنة احدى عشرة وقيل سنة عشر وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين .

(١) رجعت في الكلام عليهم الى الانباري صاحب الطبقات والى ابن خلكان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان سبب وفاته ان محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه ثم اتاه ابوالعتاهية فقدّم اليه موزاً فقال له ابوالعتاهية : ماهذا يا ابا جعفر قتلت اباعبيدة بالموز وتريد ان تقتلني به ، لقد استحليت قتل العلماء .

وتصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتب في الحمام والحيّات والعقارب والخيل والابل والزرع اي في الموضوعات التي عالجها الجاحظ ذاته .

* * *

واما الأصمعي فهو صاحب لغة ونحو وامام في الاخبار والنوادر والملح والغرائب وهو من اهل البصرة قدم بغداد في ايام هرون الرشيد .

قيل لأبي نواس : قد أحضر ابو عبيدة والاصمعي الى الرشيد فقال : اما ابوعبيدة فانهم ان امكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين واما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته .

كان حسن الانشاد والزخرفة لرديء الاخبار والاشعار حتى يحسن عنده القبيح .

وقال عمر بن شبة : سمعت الاصمعي يقول : أحفظ ستة عشر الف ارجوزة .

وقال اسحق الموصلي : لم ار الاصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه .

وكان الشافعي يقول : ما عبّر احد عن العرب باحسن من عبارة الاصمعي .

وقد حرص المأمون على الاصمعي وهو بالبصرة ان يصير اليه فلم يفعل واحتج بضعفه وكبره فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها اليه ليجيب عنها .

كانت ولادته سنة اثنتين وقيل ثلاث وعشرين ومائة وتوفي في صفر سنة ست عشرة وقيل اربع عشرة وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة وقيل بمرو .

* * *

واما ابو زيد الانصاري فهو من أئمة الادب وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب .

كان ثقة في روايته وكان سيبويه اذا قال : سمعت الثقة أراد به ابا زيد الانصاري .

حدّث ابوعثمان المازني قال : رأيت الاصمعي وقد جاء الى حلقة ابي زيد المذكور فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال : انت رئيسنا وسيدنا من خمسين سنة .

وكان الثوري يقول : قال لي ابن مناذر أصف لك اصحابك : اماالاصمعي فأحفظ الناس واما عبيدة فأجمعهم واما ابو زيد الانصاري فأوثقهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يروى عن ابي عبيدة والاصمعي انهما سئلا عن ابي زيد الانصاري فقالا : ما شئت من عفاف وتقوى واسلام .

كانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة وقيل اربع عشرة وقيل ست عشرة ومائتين وعمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة وقيل عاش ثلاثاً وتسعين سنة وقيل خمساً وتسعين وقيل ستاً وتسعين .

* * *

واما الأخفش ابو الحسن فهو من اكابر أئمة النحو في البصرة .

أخذ النحو عن سيبويه وكان اكبر منه وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً الا وعرضه عليّ وكان يرى أنه أعلم به مني وانا اليوم اعلم به منه .

حكى ابو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم قالوا : دخل الفراء على سعيد المذكور فقال لنا سعيد : قد جاءكم سيد اهل اللغة وسيد اهل العربية فقال الفراء : اما ما دام الأخفش يعيش فلا .

وكان الأخفش أجلع والأجلع الذي لاتنضم شفتاه على أسنانه والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين وقيل سنة احدى وعشرين ومائتين .

هذه جماعة العلماء الذين اخذ الجاحظ عنهم النحو واللغة والنوادر والغريب والاخبار والملح ولا ندري ماذا اخذ عنهم ايضاً .

وللجاحظ رأي في أساتيذه فاذا اتسع له مجال النقد تقدم ولم يتهيب والظاهر انه كان يستعصي عليه في بعض الاحايين فهم كلام أستاذه في النحو الاخفش أبي الحسن حتى قال له يوماً [1] .

« انت اعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم اكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : انا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني اليه

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلّت حاجاتهم اليّ فيها وانما كانت غايتي المنالة فانا اضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة مافهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا وانما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت ولكن ما بال ابراهيم النظّام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم اكثرها » .

من هذا نتبين لنا ناحية من نواحي عقول اساتيذ الجاحظ فلئن كان الاخفش من اكابر النحو يين فلقد كان صاحب حيلة وفطنة يعرف كيف يتصرف في جرّ مرغوب . وكما ان ابا عثمان نقد الاخفش في عمغمته في النحو فقد نقد الاصمعي وابا عبيدة والاخفش في مقدار نظرهم في الشعر فقد قال [1] :

« طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لايتقن الا إعرابه فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لاينقل الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والأنساب فلم اظفر بما أردت الا عند أدباء الكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات ... حتى قال الصاحب على اثر هذه الحكاية : فلله ابو عثمان فلقد غاص على سر الشعر واستخرج أرقّ من السحر » .

غير أن هذا النقد قد لا يخلو من شيء من الانحراف عن الصواب فقد قال الجاحظ في الاصمعي : طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه ولكن الذي وصل الينا من امر الاصمعي ان له آراء في الشعر لا تدل على انه لا يحسن الا غريبه حتى كان الرشيد يقول له : يا أصمعي ماتطاق في الشعر وقد كنت ذكرت لكم في محاضرتي الاولى رأيه في بشار ومروان بن ابي حفصة فان الذي يقول في بشار : سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل، ان الذي يقول نظير هذا القول قد يحسن من الشعر على ماانعقد غير غريبه .

مالنا ولهذا فاننا نتكلم على نقد الجاحظ لاساتيذه ولسنا نتكلم على وجه الصواب او الخطأ في هذا النقد .

---

(١) العمدة لابن رشيق (الجزء الثاني ص ٨٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ماانتهى الينا من تخريج الجاحظ في الادب والى جنب هؤلاء العلماء عالم في طبقة مخالفة عن طبقاتهم قد اثر في الجاحظ من ناحية غير الناحية التي اثروا فيها فلئن كان لابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري والاخفش ابي الحسن اثر بليغ في تثقيف عقل الجاحظ من جهة الادب فقد كان للنظّام اثر ابلغ في تثقيف هذا العقل من جهة الدين والعلم .

والتلميذ محمول على تقليد أستاذه وربما قلده في حركاته وسكناته وفي مشيته .

يقول الجاحظ في النظّام [١] :

« الاوائل يقولون : في كل الف سنة رجل لانظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام » .

وقال فيه في مقام آخر [٢] :

« مارأيت احداً أعلم بالكلام والفقه من النظام » .

وقال ايضاً في كلام له على تأثير النظّام في المعتزلة [٣] :

« أنهج لهم سبلاً وفتق لهم اموراً واختصر لهم ابواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة » .

صور لنا الجاحظ أستاذه ابا اسحق النظّام في صور شتى فمرة كان يعرض علينا طبيعة نظره وتمييزه فقد قال [٤] :

« وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ولم أزعم انه قليل الزيغ والزلل على ان ذلك قد كاد يكون منه وان كان قليلاً بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء وانت لست تريد حياء البتة وذلك انهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس وانما كان عيبه الذي لايفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التماس تصحيح الاصل الذي

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص٢٩) . (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص٣٠) .
(٣) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) .
(٤) الحيوان (الجزء الثاني ص٨٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان قاس عليه أمره على الخلاص ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظناً فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته » .

ومرة كان يعرض علينا مبلغ ثقة اصحابه به فقد قال [1] :

« وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع او بيان » .

وحيناً كان يصف لنا مقدار حمله السر فقد قال [2] :

« وكان ابواسحق ابراهيم بن سيار النظّام أضيق الناس صدراً بحمل سره ، وكان شر مايكون اذا يؤكد عليه صاحب السر ، وكان اذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر . وقال له مرة قاسم التمّار : سبحان الله مافي الارض أعجب منك أودعتك سراً فلم تصبر عن افشائه يوماً واحداً والله لأشكونّك للناس فقال : ياهؤلاء سلوه نمت عليه مرة واحدة او مرتين اوثلاثاً اواربعاً فلمن الذنب فلم يرض بان يشاركه في الذنب حتى صيّر الذنب كله لصاحب السر » .

وحيناً كان يصف لنا اخلاقه فقد قال [3] :

« وكان انفاً شديد الشكيمة ابّاء للهضيمة » .

هذا بعض ماتصل بنا من آراء الجاحظ في أستاذه النظّام واني ارى ان اذكر لكم من اليوم نماذج من مذاهب النظّام في الدين والفلسفة والعلم وانماطاً من تهكمه وخصائص عقله حتى تعرفوا من هو الرجل الذي اثر في الجاحظ من نواحٍ كثيرة .

ابراهيم بن سيار بن هانئ النظّام رئيس من رؤساء المعتزلة وقد انفرد عن اصحابه بمسائل تبعه فيها جماعة سموا بالنظّامية ، فاعتزاله يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فلا محل للافاضة في ذكرها في مثل هذا المقام ولكنني لا أرى بأساً ببيان بعض آرائه في الدين ، من هذه الآراء ان استواء الطاعات يؤدي الى

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٠٦) . (٢) الحيوان (الجزء الخامس ص ٦١) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص ١٣٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استواء اهلها في الثواب وكذلك الحال في المعاصي قال الجاحظ [١] :

« وزعم ابواسحق ان الطاعات اذا استوت استوى اهلها في الثواب وان المعاصي اذا استوت استوى اهلها في العقاب واذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضيل وزعم ان أجناس الحيوان يحس ويألم في التفضيل سواء » .

فكأن النظّام يريد بهذا القول ان الله عزّ وجلّ ينظر الى الناس اذا استوت طاعاتهم او معاصيهم نظرة واحدة فلا يقدم صالحاً على صالح ولا يؤخر طالحاً عن طالح وكذلك نظره الى كل حيوان ذي شعور فلا يفضل ديكاً على كلب ، مثلاً وان رأياً مثل هذا الرأي يدلنا على طبيعة المباحث الدينية التي كانوا يبحثونها في عصر الجاحظ .

وقريب من هذا الرأي قوله في دخول الأطفال الجنة وفي الفرق بين الاطفال وبين البهائم فاليكم هذا القول على نحو ما اشار اليه الجاحظ وهو لا يخلو من يسر ومسامحة [٢] .

« وزعم ان اطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة وزعم ان ليس بين الاطفال ولا بين البهائم فرق وكان يقول : ان هذه السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ولكن الله عزّ وجلّ ينقل تلك الارواح خالصة من تلك الآفات فيركّبها في اي الصور الحسان أحبّ » .

ولما قالوا بقتل الكلب وأشباهه ردّ عليهم بما يلي ، قال الجاحظ [٣] :

لما قال معبد في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص . قال ابواسحق : وان كنت انما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام : ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم فأسقط من اقدارها

---

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) . (٢) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص١٧٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقدر معنى الكلام وادنى ذلك ان تشرك بين الجميع في الذم فانك متى انصفت في هذا الوجه دعاك ذلك الى ان تنصفها في تتبع مالها من الاشعار والامثال والاخبار والآيات كما تتبعت ما عليها » .

ولا ارى لي مندوحة عن التنبيه على رأيه في بعض المفسرين لمشاركة الجاحظ له في هذا الرأي على نحو ما يتبين لنا هذا في كلامنا على دين الجاحظ ، كان ابو اسحق يقول [1] :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة واجابوا في كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير اساس وكلما كان المفسر اغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وابو بكر الأصم في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسير واسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : وان المساجد لله ، ان الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل انما عنى الجباه وكل ما يسجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة وقالوا في قوله تعالى : أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت انه ليس الجمال والنوق وانما يعني السحاب واذا سئلوا عن قوله : وطلح منضود قالوا الطلح هو الموز ، وجعلوا الدليل على ان شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الامم وان الناس غيروه ، قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقالوا في قوله تعالى : ربّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قالوا يعني انه حشره بلا حجة ، وقالوا في قوله تعالى : ويل للمطففين الويل وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ومعنى الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهلية قبل الاسلام وهو من أشهر كلامهم ، وسئلوا عن قوله تعالى : قل اعوذ برب الفلق ، قالوا : الفلق وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفونه ، وقال آخرون : الفلق المقطرة بلغة اليمن ، وقال آخرون في قوله تعالى : عيناً فيها تسمى سلسبيلا قالوا : أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض ، قالوا : وانما هي سل سبيلاً اليها يا محمد ، فان كان كما قالوا فأين معنى تسمى وعلى اي شيء وقع قوله : تسمى ، فتسمى ماذا وماذلك الشيء ... » .

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ١٦٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا من ناحية بعض معتقدات النظّام في الدين اما من ناحية الفلسفة فاليكم رأيه في مذهب الشكاك فقد قال [١] :

« نازعت الملحدين والشكاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من اصحاب الجحود » .

وقال في موطن آخر [٢] :

« الشاك اقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

فاذا عرفنا طائفة من آرائه في الدين والفلسفة فلا بأس بان نعرف شيئاً من ناحيته العقلية فقد كان مطبوعاً على البحث عن اصل كل شيء وعن علته دون ان يقتصر على الانقياد والتقليد وهذا من خصائص الجاحظ نفسه ، فقد قال [٣] :

« بلغني وانا حدث ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اجتثاث فم القربة والشرب منه ، قال : فكنت أقول ان لهذا الحديث لشأناً وماني الشرب من فم القربة حتى يجيء فيها هذا النهي ، حتى قيل ان رجلاً شرب من فم قربة فوكعته حية فمات وان الحيات تدخل في افواه القرب علمت ان كل شيء لا اعرف تأويله من الحديث ان له مذهباً وان جهلته » .

من هذا يتبين لنا ان النظّام لا يؤمن بالامور قبل ان يعمل عقله في اصل هذه الامور وهذه صفة من صفات الجاحظ تظهر لنا في الآتي .

واليكم مايدل على حسن تصرفه في الاختبار والامتحان فقد قال [٤] :

« اذا أردت ان تعرف مقدار الرجل العالم وفي اي طبقة هو واردت ان تدخله الكير وتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد فكن عالماً في صورة متعلم ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه » .

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) . (٢) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .
(٣) الحيوان (الجزء الرابع ص ٨٨) .
(٤) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على ان النظّام لم يكتف بطلب الفلسفة والكلام وانما عكف على طلب العلم ولا سيما علم الطبيعة وكان الجاحظ ينقل عنه ، ولا بأس بان أُشير الى نموذج من آرائه في هذا العلم فأشير الى رأيه في انتشار الضياء والحرارة دون ان اتعرض لصحة هذا الرأي او لفساده وانما اكتفي باثباته في هذا المقام حتى نعرف كيف كانت مباحثهم عن الطبيعة في عصرهم اذ ان الضياء والحرارة معروف امرهما في عصرنا هذا فلا ارى حاجة الى الخوض في مثل هذا المعنى ، قال ابو اسحق [1] :

« النار اسم للحرق والضياء فاذا قالوا : احرقت او سخّنت فانما الاحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين وهو الحر دون الضياء وزعم ان الحر جوهر صعاد وانما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما لانهما متى صارا من العالم العلوي الى مكان صار احدهما فوق صاحبه وكان يجزم القول و يبرم الحكم فان الضياء هو الذي يعلو اذا انفرد ولا يعلي ، قال : ونحن انما صرنا اذا اطفأنا نار الأتون وجدنا ارضه وهواه وحيطانه حارة ولم نجدها مضيئة لان في الارض وفي المادي الذي قد لابس الارض حراً كثيراً وتداخلاً متشابكاً وليس فيها ضياء وقد كان حر النار هيّج تلك الحرارة فأظهرها ولم يكن هناك من ضياء ملابس فيهيجها الضياء و يظهرها كما اتصل الحر بالحر فأزاله من موضعه وابرزه من مكانه فلذلك وجدنا ارض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة » .

ولقد كان النظّام مع هذا العلم ومع هذه الفلسفة يميل الى التنكيت في بعض الأحوال ، قال الجاحظ [2] :

« وانشد ابراهيم بن هانيء وعبدالرحمن بن منصور :

جنونك مجنون ولست بواحد طبيباً يداوي من جنون جنون

وكان ابراهيم لا يقيم شعراً ولا ادري كيف أقام هذا البيت وكان يدعي بحضرة ابي اسحق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون وانه يقول الشعر فقال ابواسحق نحن لم

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٢) .

(٢) الحيوان (الجزء الثالث ص ٣٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نمتحنك في هذه الامور فلك ان تدعيها عندنا ، كيف صرت تدعي قول الشعر وانت اذا رويته لغيرك كسرته ، قال : هكذا فاني طبعت ان اقيمه اذا قلت واكسره اذا انشدت ، قال ابواسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! » .

فقوله : ما بعد هذا الكلام كلام لايخلو من تنكيت باطن .

* * *

بقي ان نعرف بعض ماوقع الينا من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها الجاحظ في حياته حتى نعلم بعناصر ثقافته بحذافيرها .

سمع الجاحظ من الفلاسفة وقرأ كتب الاطباء والمتكلمين فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والاخبار والاشعار والغرائب وما شابهها وقرأ كتباً غيرها نقل عنها منها : كتاب الفراسة لاقليمون وكتاب طباع الالبان لصاحبه ماسرجويه وكتاب المنطق لارسطاطاليس وكتاب إقليدس ونقل عن بختيشوع وعن حنين وعن جالينوس وعن صاحب الديك وغيرهم .

فقد نظر في الذي اودعته الاوائل كتبها وخلّدته من عجيب حكمتها ودوّنته من أنواع سيرها بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني فهو من هذا الباب كامل من الكملة وأريد بالكامل من اخذ من كل شيء بطرف واذا تكلمنا على عبقريته في الآتي تبينت لنا نتائج ثقافته العامة فلم يخف عليه موضوع من الموضوعات قد يجوز انه لايتعمق في الموضوع تعمق اهل الاختصاص الا انه قد يلمّ به الماماً بحيث لايكون غريباً عنه وقد طبعت قراءته الكتب على مختلف معانيها ثقافته بطابع خاص واعني بالطابع الخاص تنوع أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل لاتشكو منه قحطاً في فكر اوجدباً في معنى .

لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية فانه على الرغم من انقياد ادب العرب له وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الادب في مواطن شتى من كتبه ماتذمم من الاخذ عن اليونانيين او عن الفرس فقد ذكر الامم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم فقال : هذه الامم اربع ، وهي : العرب والهند وفارس والروم .

ورأى ان العرب أنطق وان لغتها اوسع وان لفظها ادلّ وان اقسام تأليف كلامها اكثر والأمثال التي ضربت اجود واسير والبديهة مقصورة عليها والارتجال والاقتضاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاص فيها [١] .

وكره الشعوبية وطعن عليهم :

« واعلم انك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا اشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غنماً من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جشوم الحسد على اكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة وتسعّر تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق كل ملة وزي كل لغة وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم وما علة كل شيء من ذلك ولم اختلقوه ولم تكلفوه لأراحوا انفسهم وتخففت مؤنتهم على من خالطهم [٢] .

ومع هذا كله فما كان يستنكف عن ان يقول : قال جالينوس وقال صاحب المنطق وقال بختيشوع وأضرابهم فالجاحظ نزّاع الى التجديد فهو لا يرى بأساً بان يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الامم المعروفة في عصره المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب ، واي ادب لم يعمل فيه ادب غيره .

« اي ادب من الآداب لم يؤثر فيه ادب غيره ولسنا نعرف ادباً قومياً محضاً مستقلاً كل الاستقلال وقد يذهب وهمنا الى ان الأدب اليوناني مصبوغ بمثل هذه الصبغة وانما نتوهم هذا لأن الأدب اليوناني قد عاش وحده دون بقية الآداب التي كانت في عصره وقد يؤثر ادب وسط في ادب اعلى منه على شرط ان يكون هذا الادب الوسط فيه شيء من الغرابة والجدة .

الجدّة انما هي غذاء الأدب وهل تأتي هذه الجدّة الا من ادب غيره اننا لا نستطيع ان نتغذى بمواد بدننا وحدها لقد اقتبست فرنسة عناصر ابداعها عن آداب غيرها من الامم وقد كان هذا الابداع يتجدد في كل عصر وقد اقتبست آداب اوربة على اختلافها معظم مادتها التي سكر بها أعاظم العبقريين عن الادب الفرنسي ، هل من سبيل الى فهم (غوتي) مجرداً من الثقافة الفرنسية ؟ ام هل من سبيل الى فهم (شاتوبريان) مجرداً من

---

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٢٠٤) .

(٢) البيان والتبيين (الجزء الثالث ص ١٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثقافة الانكليزية [١] .

فالجاحظ لم تخل ثقافته من عنصر يوناني ولا يبعد انه كان يعرف الفارسية ولست أقول هذا استناداً الى طائفة من الألفاظ الفارسية التي أوردها في بعض كتبه وفسرها فهذا غير كاف ان يستدل به على معرفته الفارسية فلا يخلو عصرنا من جماعة يعرفون بعض الفاظ أعجمية ثم يزعمون انهم واقفون على أسرار اللغة التي تدخل فيها هذه الألفاظ وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يذهبون الى البحث عن اشتقاقات الألفاظ وردها الى اصولها وهم جاهلون بالفروع و بالاصول وهذا منتهى الخلط والتدجيل . وانما الجاحظ تغلغل في بعض الأحيان في أسرار الفارسية فلم يقتصر على ذكر اللفظة ومعناها فمن قوله :

« والفرس تسمي الاشياء بالاشتقاقات كما نقول للنعامة : اشترمرغ وكأنهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل فلم نجد هذا الاسم أوجب ان تكون النعامة نتاج ما بين الإبل والطير ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين وهم يسمون الشيء المرّ الحلو : ترش شيرين وهو في التفسير « حلو حامض » [٢] .

وقال في مقام آخر [٣] :

فالجاموس بالفارسية « كاوماش» وتأويله : ضاني بقري لانهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور » .

وقد كانت الفارسية مستفيضة حتى انهم كانوا يدخلون شيئاً منها في الشعر نفسه كقول المعاني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من بلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه و (الكرد)

قال الجاحظ والكرد «العنق» .

و يقول المعاني في الرشيد ايضاً :

---

(١) النزه الادبية — السلسلة السابعة لصاحبها (Remy de Gourmont) (ص١٠٧) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٥) . (٣) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر (آب سرد[١])

ودليل آخر على استفاضة الفارسية في كلام العرب قول الأصمعي[٢] :
« ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكباً ، اوسمعته يعرب اوشممت منه رائحة طيبة .
وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل او سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية او رأيته على ظهر الطريق ينازع في القدر » .

***

هذا مارأيت ان اذكره من ثقافة الجاحظ وهذه هي عوامل ثقافته : قراءته الادب والدين والعلم والفلسفة على أساتيذ كانوا الأمثال في مذاهبهم وافتباسه عن علم اليونانيين في بعض الاحيان ومطالعته لكتب في موضوعات شتى ثم خواطره وتجاربه ومعايناته . فقد كان مولعاً بقراءة الكتب حتى قال ابوهفان[٣] : « لم ار قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر .
وقد تظهر لنا آثار هذا الولع في الفصل الذي عقده في الكلام على الكتب فقد تفنن في هذا الكلام التفنن كله .

ثمرة يجد في الكتب النزهة والانس والظرف والمزاح[٤] :
« والكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ... والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً وانا اشحن مزاحاً وجداً ... ان شئت ضحكت من نوادره وان

---

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٧٩) . (٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ص٢٩٦) . (٣) معجم الادباء (الجزء السادس ص ٥٦) .
(٤) الحيوان (الجزء الاول ص ١٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه ...»
ومرة يجد فيها آثار العقول ونتائج العصور [١] .

« ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب »

وحيناً يجد فيها شحذ الطباع وتجييح النفس [٢] :

« والكتاب هو الذي ان نظرت فيه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجوّد بيانك وفخم الفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك» .

وحيناً يجد فيها الاستغناء عن ملابسة صغار الناس وما ينتج عنهم [٣] :

« ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الاّ منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارّة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ... »

والخلاصة انه يجد الكتب اشد تقييداً للمآثر على ممر الايام والدهور من البنيان [٤] :

« وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى اثره ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه الاّ بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة ولولجأنا الى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة

---

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٢١) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٢٦) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص ٢٧) .
(٤) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً و لَكَلَّ الحدّ وتبلد العقل » .

الى آخر ماجاء في هذا الفصل البليغ الذي يدلنا على قدرة الجاحظ على الانشاء . ولقد شحذت الكتب فهمه وفلقت عقله وأرهفت طباعه ، وان ر بلاً هذه هي مبالغ ثقافته وهذا هو مقدار ولعه بالكتب لانعجب من خصب عبقريته واذا شئنا ان نحيط بهذا الخصب فلنرجع الى فهرست كتبه .

فكأن الجاحظ قد أُمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ماقدر عليه من أصناف الموضوعات فلم يكن غفلاً من كل مايجري فيه الناس ويخوضون فيه ، فاذا اردنا ان نصفه بكلمة قلنا فيه انه كامل على نحو قول الافرنجة في امثاله : فلان Encyclopédiste والصحيح ان الجاحظ قد لخص معارف عصره فهو في هذا الباب يشبه ارسطاطاليس في القديم ، وقد هيأته ثقافته لهذا التلخيص .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشرع الدولي في الاسلام[1]

—«»—

تساءل كثير من العلماء عن وجود شرائع دولية عند الأقدمين كاليونان والرومان والصين وتباينت الآراء في ذلك . ومما لامجال للشك فيه ان في العهد الطويل الذي خلا بين الحضارة القديمة والحضارة الحديثة اي بين القرن السابع والثالث عشر — ذلك العهد الذي سادت فيه الحضارة العربية والآراء الاسلامية — أسست قواعد ومذاهب في المعاملات الدولية يستطيع المؤرخ ان يجد فيها سوابق تاريخية جليلة يقايس بينهـا وبين ماوصل اليه المحدثون من الآراء والأوضاع .

وما كنت أعرف باديء الرأي ماعسى ان يقع لي من الوثائق وماذا اجده من المظان والمراجع . وحسبت انني لاأعثر الا على النزر اليسير الذي لايطفيء غلة الباحث الحريص . فما كدت استثير دفائن التاريخ وأرد ينابيع الفقه حتى وجدت فوق ما كنت اؤمل واكثر مما كنت أتوقع . واذا كان كثير من مؤرخي الشرائع الدولية قد أغفلوا هذه المرحلة العظمى فانهم قد أغفلوا بذلك اعظم المراحل التي قطعهـا الشرع الدولي قبل المرحلة الحديثة .

نعم ان الشرع الدولي من أوضاع المحدثين . ولم يتقرر حقيقة الا منذ معاهدة (وستفاليا) ايام أصبحت الصلات الدولية قائمة على قواعد محكمة . ولكنه كسائر ما تنتجه عقول البشر ، ثمرة المساعي المشتركة التي تقوم بها جميع الشعوب وتتعاقب عليها الأجيال . ويكفي ان توجد جماعتان حتى تشتبك بينهما المصالح وتضطرهما الى التعامل والتعاقد ، وتقرير قواعد الحرب والسلم . فلذلك نرى الاوضاع الدولية رغم مافيها من ضعف ظاهر ، قليلة

(١) محاضرة الاستاذ نجيب الارمنازي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التحول كثيرة التشابه . ولا بد لكل جماعة ذات كيان من ان تحرص على توثيق عرى الصلات بمجاوريها ، وان تحافظ بقدر ما تستطيع في علائقها على المبادئ الشريفة والقواعد العادلة ، التي يحترمها في الغالب اهل العصر ، ويوحي بها الوجدان والعقل .

ثم ان الامم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، وميراث العلوم عام مشترك بين الجميع ، والتشابه عظيم بين القواعد التي اخرجت للناس . ولكن ينبغي ان ينظر المرء حينما يقايس بين آراء المتقدمين وآراء المتأخرين الى الفرق بين هذا الزمان وبين تلك الازمان . فقد تغيرت الامم ، وتبدلت قواعد الدول ، وأصبح الانسان اليوم غيره بالامس . ولم تبق شؤون الرجال على ما كانت عليه من قبل وبدلت حالاً بعد حال .

* * *

والمقصود بالشرع الدولي في هذه الايام مجموع القواعد التي تعين حقوق الدول وواجباتها المختلفة في علاقاتها المتبادلة . ولكنه في المعنى الذي نقصده مجموع القواعد التي يتعين على المسلمين التمسك بها في معاملة غير المسلمين محاربين او مسالمين . سواء أكانوا اشخاصاً ام كانوا دولاً ، وفي دار الاسلام او في خارجها . ويدخل في جملة هذه القواعد احوال المرتدين والبغاة وقطاع الطريق وقد سميت في كتب الفقه بالسير جمع سيرة لانها طريقة معاملة المسلمين لغيرهم . فلا نكون مغالين اذا قلنا ان الائمة عنوا منذ البدء في وضع أسس لما نسميه بالشرع الدولي ، وان كانت هذه الاصول تخص شريعة الحرب في اكثرها .

وقد وجد الاسلام منذ نشأته الاولى اعداء مناضلين ، فحارب من حاربه وسالم من سالمه ، ووضع الحدود والقواعد لحربه وسلمه ، وما يعرض له فيهما من المسائل الكثيرة التي تتعلق بالمحاربين والمسالمين ، وأشباه ذلك مما احله الفقه الاسلامي أسنى مكان . وحقيق ان يقال انه عني بما تقدم من القواعد واتسع لها صدره اكثر من احكام العقوبات وسياسة الدولة . لانها نشأت مع الاسلام ونمت بنموه وسايرت الحروب المستمرة والفتوحات العظيمة .

وقد قرر كثير من المؤلفين مثل (هولتزندروف ورينى) ان الفقه الاسلامي يضم جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشريعة الحرب ، ولم تقتصر على الفتح والغنيمة بل تجاوزتها الى فرض الضرائب وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها . مما لا يختلف الا اسمه عما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يستعمل في يوم الناس هذا [١] . وأشار (نيس) الى ما في تاريخ الامم الشرقية — يعني الروم والعرب — بين القرن السابع والقرن الثالث عشر من اعمال وأوضاع تتعلق بما يسمى في ايامنا بالشرع الدولي . نعم انه لا يوجد شيء ثابت ، وليس ثم نظام معين ، وان هناك مظاهر غير متسقة ولا مستقرة ، ولكنها مع ذلك جديرة بان نقف عليها الانظار بكل تدبر وامعان [٢] .

وجميع كتب الفقه الاسلامي على اختلاف المذاهب ، تفصل على قدرها موضوعات الصلات بين المسلمين وغير المسلمين في باب الجهاد والسير كما ذكرنا . وقد يكون احسن ما الف في هذا الباب كتاب السير الكبير للامام محمد بن حسن الشيباني صاحب ابي حنيفة . وشرحه شمس الائمة السرخسي مؤلف المبسوط وأملاه في السجن على تلاميذه . وهو كتاب غزير المادة ، جم الفوائد ، قد استوعب اصول هذا العلم واستقصى غريب مسائله ، ولم يقتصر فيه على ماذهب اليه اعلام المذهب الحنفي بل أورد كثيراً من مذاهب الآخرين وناقش أصحابها في حججهم . وطريق محمد في الترجيح في هذا الكتاب ، هو النظر فيما اختلف فيه اهل العراق واهل الشام واهل الحجاز فرجع ما اتفق عليه فريقان فأخذ به دون ما تفرد به فريق واحد .

والف الامام ابو يوسف كتاب الخراج لهرون الرشيد ، وهو يصح ان يكون كتاباً في التشريع المالي ، وقد عالج فيه كثيراً من مسائل الحرب والسلم ، لان الحرب من اعظم المصادر التي تمد بيت المال ، والف في الموضوع نفسه قدامة بن جعفر ويحيى بن آدم .

ومن المؤلفات الفريدة كتاب الاحكام السلطانية للقاضي ابي الحسن الماوردي ، الذي كتب في الغالب على مذهب الامام الشافعي وجمع كثيراً من الامور التي تتعلق بالشرائع العامة للدولة ومن جملة ذلك شريعة الحرب وقد فصلها في امارة الجهاد وفي مطالب الخراج والجزية والغنائم . ورجع الى هذا الكتاب النفيس اكثر من واحد وعدوه مؤلفاً على غير مثال . وقد وضع القاضي ابو يعلى كتاباً سماه (الاحكام السلطانية) وعالج فيه نفس

---

(١) تمهيد في حقوق الاشخاص .

(٢) حقوق الاشخاص في معاملات العرب والبيزانطيين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الابحاث على مذهب الحنابلة . ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق رديئة الخط غير كاملة . وفي هذه المكتبة وجدت كذلك نسخة من كتاب السير الكبير الذي وضعه الامام محمد ، وهي كثيرة التحريف وان كان خطها جميلاً مونقاً . وقد قيل ان الكتاب مطبوع في الهند ، ولم اطلع على نسخة مطبوعة .

* * *

والشرع الدولي فيما نريد ان نقرره جزء من الفقه الاسلامي الذي لا يفرق بين الشرع الخاص والشرع العام ولا بين الشرع الداخلي والشرع الدولي . وهو كذلك شرع مكتوب لا يستثني العرف والعادة وشرع داخلي يتحتم تطبيقه في العلاقات الدولية . وكما ان حكمه يجري على الدول فكذلك يجري على الافراد مباشرة وبدون مباشرة اي كونهم من متعلقات احدى الدول . وللافراد حقوقهم وواجباتهم كمقاتلين ومعاقدين ومستأمنين وغير ذلك . والمرأة الغربية مثلاً اذا دخلت بلاد الاسلام أثارت جملة من مسائل تدرس فيه شؤونها الشرعية بعناية وتدقيق .

فما هو الاساس الذي بني عليه الشرع عند المسلمين ؟

انا نجد انفسنا قبل كل شيء اما شرع مصدره وحي آلهي ، ولكن هذه الفكرة المستندة على العقيدة والايمان لا تكفي لتعريضنا تماماً بالاوضاع الشرعية الاسلامية . ويرى المستشرق الكبير الكونت استرورغ ان الفقه الاسلامي بقيامه على أسس الوحي وتفرعه من علوم الدين ووقوفه عندما حدده اصحاب المذاهب الاربعة التي لا يصيبها التغيير والتبديل ، يشابه اكثر شيء بين الشرائع شريعة الكنيسة او الشرع القانوني [1] . ولا يخلو ماقال هذا المستشرق من مبالغة في شأن المذاهب الاربعة خصوصاً في نظر الاصلاحيين من المسلمين . وعلى كل حال فان الفقه الاسلامي مزيج مؤلف من شرع ودين يمتان بسبب واحد فالفقهاء من علماء الدين وعلماء الدين من الفقهاء .

وصدور الفقه عن وحي آلهي يجعله ثابتاً لا يتغير . ولكن اي شيء في الدنيا لا يتغير . والمسلمون مأمورون باتباع اوامره والانتهاء عن نواهيه ، وما لأحد منهم ان يتبع في مذهبه

(١) حقوق الخلافة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خياله ورأيه وادبه وفلسفته فهنالك حدود لايجوز له ان يتعداها ، على ان الفقه واسع النطاق كثير التفريع للمسائل ، يجمع بين العادات والمعاملات والعقوبات واقامة الحدود وسياسة الحرب وتدبير السلم وسائر صنوف الشريعة وطرائق الحياة السياسية والاجتماعية . فالوحي إذن من الوجهة العملية والنظرية لم يكن وحده مصدر القواعد الشرعية كلها . وقد اكتفى المسلمون في اول امرهم بما كان يأتيهم به القرآن من الاحكام وما كان يحدثهم به الرسول (ص) و يبين لهم فيما يعرض من الامور والحوادث . فلما امتدت الفتوحات وطرأت على المسلمين حاجات جديدة واحتكوا بحضارات راقية وعقائد مختلفة ، لم يجدوا بداً من وضع قواعد الفقه الذي يطابق معنى الحكمة عند الرومانيين . وهو كما حدده هؤلاء ، ولكن بمعنى أضيق لمعرفة الشرائع الالهية والبشرية وتعيين حدودها . وقد استعان المسلمون بالاجماع و بالقياس الذي تفرع عن الرأي لسد حاجاتهم الجديدة ولجأوا في اكثر ما يحتاجون اليه الى لاساس العام لجميع الشرائع القديمة : أساس العرف والعادة . اليست القاعدة الاساسية الكبرى هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهل الامر بالمعروف الا التمسك بما نعارف عليه الناس . والنهي عن المنكر الا هجر ما أنكروه او جهلوه . واذا وجدنا في الاسلام قواعد مماثلة لما كان عند الرومان والعبرانيين وسائر الشعوب التي تقادم عليها العهد ، اليس ذلك لان هذه القواعد كانت شرائع متبعة في البلاد التي نشأ بها الاسلام ، ولم يشأ ان يقضي عليها لأن المجتمع كان يستفيد منها ، فإذن نستطيع ان نحكم حكماً لم يذكر بوضوح كاف وهو ان الاسلام لم يعوق سير حضارة الشعوب ولم يعترض في سبيلها ، بل أجل ميراث الامم التي سبقته في ديوان العالم ، وكان حلقة اتصال كبرى في سلسلة الأوضاع القديمة والأوضاع الحديثة تلك السلسلة التي تمثل لنا جهود الانسانية الدائمة الدائبة في معارج التقدم ، وقد اكتفى الاسلام بحذف ما رآه ضاراً وابقاء ما رآه نافعاً ، اما الزبد فيذهب جفاء ، واما ماينفع الناس فيمكث في الارض .

ولكن خصيصة الشرع الاسلامي واذا شئت فقل تفوقه ، قائم بما قرره من المؤاخاة العامة والتسوية بين أفراد الامة ، وهو لا يعرف حدوداً ولا يقف دون حائل ، يشمل الجميع ولا يميز بين احد ، وكل انسان مطلق الحرية في حدود الشرع ، محفوف بالحماية حيثما كان ، هو واهله وماله . وهذا هو السبب الذي جعل الاسلام يمتد امتداده العظيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على تمادي العصور في آسية وافريقية واوربة بين الملايين الذين يعتقدون به . واذا كانت هذه القواعد لا تزال حتى اليوم مصدراً لشرائع كثير من الشعوب التي اختلفت عناصرها ولغاتها وحضارتها ، فذلك لان نظام الاسلام الادبي والخلقي لم يكن قاتلاً لصفاتهم وخصائصهم . على اننا لا ننكر ان الرجال الذين وكل اليهم تطبيق هذه المبادئ لم يكونوا اكفاءها وجديرين بها . فقد وجد الذين سوّدوا صحائف التاريخ بسوء صنعهم وفسادهم الذي عم القريب والبعيد وأصاب العربي والاعجمي والمسلم وغير المسلم فلا ذنب على القواعد والمذاهب . ولكن الذنب على الرجال أنفسهم اذا ظلموا باعتدائهم حدود الله .

ثم ان الاسلام بتوحيده أساس الشرع وتعميمه ، منع في عهد طويل ما يمكن وقوعه من الخلاف بين الديني والمدني وبين الشرع العام والشرع الخاص وبين الشرع الوطني والشرع الدولي . وقد سنّ العقوبات اللازمة حتى لا يكون العمل ناقصاً . والله عند المسلمين مصدر الشرائع الاسمى وهو الحكم العدل في الدار الاولى والدار الاخرى ، وهذا هو المذهب الثيوقراطي الذي يعمر قلوب السامعين ، ولكن كيف يكون الحكم وتكون العقوبة في هذه الحياة ، خصوصاً اذا شجر الخلاف بين طوائف مختلفة حتى نشب القتال وسالت الدماء ، فقد قال تعالى : انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم . وقال : وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين . فما أحسن هذه الأسس ، الا تجد فيها نظيراً لما يسعى له الناس اليوم في الصلات الدولية وتعقد لاجله المجامع وتحتفل المؤتمرات ، الاصلاح والتحكيم وبعد ذلك الجزاء وعقوبة الباغين والمعتدين .

غير ان هذه القواعد الشريفة لم تجد في الاسلام (وضعاً) عملياً يقوم بتطبيقها وينظر في امرها ، نعم انهم يذكرون اهل الحل والعقد الذين هم رجال السياسة والتدبير ، ولكن هذا الوضع الذي كان يرجى ان يكون عظيم الفائدة بعيد الأثر . ظل في طي الابهام والنسيان غالباً ، ولولا ذلك لما أصيب الاسلام بما أصيب به من أثرة المسيطرين وسوء ملكتهم ، على ان هذه القوة العظمى للامة ، هؤلاء الناس الذين سماهم الشارع باهل الحل والعقد ، ليكون لحكمهم في الجماعة مقام الارادة عند الفرد ، كان لهم جانب عزيز في صدر الاسلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وان لم تكن لهم صفة معينة ، وقد اضمحلوا رويداً رويداً مع اضمحلال الاسلام وتشتت قواه . وما من تبعة تقوم على الدين والشريعة ، فكلاهما قابل للتطور يتسع لمختلف المذاهب ، ولكن الجماعة الحية الكائنة لم تكن لها ارادة او لم تكن لها فئة تملي هذه الارادة .

* * *

وأساس قواعد الشرع الدولي وطرق تطبيقه في الاسلام ، ان الارض تنقسم الى قسمين : دار الاسلام ودار الحرب ، وأراد بعضهم ان يضيف الى هاتين الدارين دار العهد .

فدار الاسلام تشمل البلاد التي يسود بها حكم الاسلام ، سواء أكان سكانها مسلمين ام غير مسلمين . وهي وطن كل مسلم مهما كانت جنسيته وحيثما كان ميلاده ، يتمتع فيها (بحرية المدنية) وحقوق الشريعة كما انه يلزم باداء واجباتها .

والبلاد الخارجة عن سلطان المسلمين تؤلف دار الحرب ، حيث ينبغي ان تتبع قواعد معينة تختلف عن الاولى ، هي أشبه بما يسمونه اليوم بقواعد الشرع الدولي العام والشرع الدولي الخاص .

واما دار العهد او دار الصلح فهي البلاد التي لم يستول عليها المسلمون استيلاء حتى يطبقوا فيها شرائعهم وسننهم ، ولكن أهلها دخلوا في عقد المسلمين وعهدهم ، على شرائط اشترطت وقواعد عينت ، فتحتفظ بما فيها من شريعة وأحكام ، وتكون شبيهة بالدول التي لا تتمتع باستقلالها كله ، سواء بحماية مفروضة او معاهدة معقودة . ومثال ذلك ما كان من عهد الرسول (ص) الذي كتبه لنصارى نجران او العهد الذي كتبه معاوية لاهل ارمينية فأقر به سيادتهم الداخلية المطلقة وابقى لهم رؤساءهم وأوضاعهم العسكرية وطبقاتهم الدينية . وحالفهم على دفع الروم عنهم وانجادهم بقدر ما يحتاجون اليه من الجنود وان يكون لهم جيش خاص لا يستعين به الخليفة في الشام . ولا يقول كثير من الفقهاء بدار العهد وما هي عندهم الا من قبيل الهدنة ومن المعاملات القائمة على المعاقدات المتقابلة ، واذا لم يكن هذا المذهب واضحاً كل الوضوح فانه مع ذلك يتخذ اصلاً للتعامل والتعاقد وضمان المواصلات السلمية .

و يشبه التقسيم الاسلامي من حيث المبدأ على الأقل ، ماقبله البلشفيك في روسية ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهذه البلاد هي الوطن العام لكل شيوعي ودار السلام للقائلين بهذ المذهب والمعتصمين بحبله ، ومابقي من العالم حيث يسود اصحاب الاموال واولياء الجبروت ، يعتبر دار حرب يتعين فيها على كل ثائر يقول بقول الشيوعيين ان يتخذ جميع الوسائل هو وجماعته للانتقاض عليها والاستيلاء على مقاليد السلطة فيها .

ولا نعدم وجوهاً للشبه كذلك بين المسلمين على اختلاف اقطارهم وأجناسهم وبين نصاري الكاثوليك على اختلاف أقطارهم وأجناسهم ونظر الكنيسة لهم نظرها الى مجموعة عامة .

ومن هذا القبيل ماصنعه الاستاذ الشهير (لوريمر) في تقسيمه العالم بالنظر الى الشرائع الدولية وجعله ثلاث طبقات : الاولى تتمتع بجميع الحقوق ، وهي الانسانية المتمدنة التي تشمل الامم النصرانية في الغالب ، والثانية تتمتع بقسم منها ، وهي الانسانية البربرية ، اي التي هي نصف متمدنة ، وتدخل فيها الامم الاسلامية ، والثالثة لاتتمتع الابجزء يسير من معاملة الانسان للانسان وهي الانسانية المتوحشة . وكذلك نجد عند المسلمين درجات مختلفة لتطبيق قواعد الشرع . الاولى تخص المسلمين الذين يتمتعون بكل حق حيثما كانوا في الممالك الاسلامية ، والثانية تخص الذين ينزلون في بلاد الاسلام ويتمتعون بحماية الدولة وصيانتها على حسب قواعد الذمة والامان ، او على حسب المعاهدات والمعاقدات ، والثالثة الحربيون وهم الذين يعاملون بحسب القواعد الاستثنائية التي لايخفف من شدتها غير الرخص المبذولة والعهود المقطوعة ، والمصلحة التي يراها صاحب الامر .

ومما يحسن ذكره ان سيادة الأحكام في عرف الامامين ابي يوسف ومحمد هي فوق سيادة الامير في التمييز بين دار الحرب ودار الاسلام اذ المعتبر في حكم الدار — كما جاء في السير الكبير — هو السلطان وظهور الحكم ، فان كان الحكم حكم الموادعين بظهورهم على الدار الاخرى كانت الدار دار موادعة ، وان كان الحكم حكم غير الموادعين او سلطان آخر في الدار الاخرى ليس لواحد من أهل الدارين حكم الموادعة .

وتعد الجبال والانهار وسواها مما يفصل دار الاسلام عن دار الحرب من دار الحرب وان لم تكن حقيقة من الواحدة ولا من الثانية ، وهذا الحكم لعدم الامن والطمأنينة .

وليس على غير المسلمين في دار الاسلام ان يراعوا جميع قواعد الشرع الاسلامي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بتحريم مايحرمه وتحليل مايحلله . وتجري أحكام الحدود على الذمي واختلف باقامتها على المستأمن ، فاستحسن ابو يوسف ان يؤخذ بالحدود كلها ، وقال آخرون من الفقهاء لاأقيم عليه الحد لأنه لم يدخل الينا ليكون ذمياً تجري عليه أحكامنا وهذا في الزنى والسرقة ، اما في القذف والشتم فانه يُحدّ ويُعزّر لانها من حقوق الناس[1] وكذلك فان الاوامر الخاصة بالمسلمين مثل تحريم الخمر لاتطبق على سواهم من الذميين ولا من المستأمنين . وفي بعض المعاهدات التي عقدت في القرن الثاني عشر والثالث عشر بين الدول الاسلامية والدول النصرانية كان المسلمون يستبقون لانفسهم حق العقوبة في بعض الجرائم الكبيرة ، ويتركون للقضاة النصارى حق الحكم بماسواها . وكان القضاء موكولاً الى رؤساء الطوائف في امر ابناء دينهم . وقد جاء في صبح الاعشى كثير من المراسيم في هذا المعنى وفي حض الرؤساء على معاملة مرؤوسيهم بالرفق والحسنى والمؤاساة واجتناب الحيف والاجحاف وكان في الاندلس قضاة من المسلمين يفصلون في دعاوى غير المسلمين ويسمونهم بقضاة الاعاجم على ماجاء في رسالة ابن القوطية في فتح الاندلس .

وقد ذكر الماوردي في الاحكام السلطانية عند كلامه على اهل الذمة (انهم اذا تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه واذا تنازعوا في حق وترافعوا فيه الى حاكمهم لم يمنعوا منه ، فان ترافعوا فيه الى حاكمنا حكم بينهم بما يوجبه دين الاسلام ونقام عليهم الحدود اذا أتوها ، ومن نقض منهم عهده بلغ مأمنه ثم كان حرباً ، ولأهل العهد اذا دخلوا دار الاسلام الأمان على نفوسهم وأموالهم ولهم ان يقيموا فيها أربعة أشهر بغير جزية ولا يقيمون سنة الا بجزية وفيما بين الزمنين خلاف ، ويلزم الكف عنهم كأهل الذمة ، ولا يلزم الدفع عنهم بخلاف اهل الذمة .

ولقضاة المسلمين حق الفصل فيما بين المسلمين وغير المسلمين من الخصومات الا اذا كان منشأها دار الحرب لان سلطان الاسلام لايبلغها ، والقضاء يعتمد الولاية وما ثمة من ولاية للمسلمين . وهذه القواعد ونظائرها تعد اليوم من مسائل الشرع الدولي الخاص .

وهنالك قواعد أخرى تضاهي ما عند المعاصرين من قواعد الشرع الدولي العام

---

(١) كتاب الخراج : ص٢٢٤—٢٢٥ طبعة المكتبة السلفية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتذكرنا بها . فما يتعلق بالسلام نجد مثلاً وجوب الوفاء بالعهود المقطوعة وحرمة العقائد وعدم الاكراه في الدين والوساطة والتحكيم وصيانة الرسل واجتناب اذى المحايدين وقواعد المعاهدات والمحالفات وشؤون الامارات التابعة . اما شريعة الحرب فهي المجال الواسع لابداع الشارع الاسلامي واتقانه . فقد أفاض في قواعد اعلان الحرب ومقدمات القتال وأساليبه وصيانة الأولاد والنساء والشيوخ والرهبان وحرمة الموتى بوجوب مواراة قتلى الفريقين واجتناب المثلة واصلاح حال الأسرى والسبايا والعطف على الرقيق .

وقد وجد في العالم المتمدن منذ معاهدة وستفاليا قواعد تتعلق بحرية الدول وتضامنها والتسوية بينها وما أشبه ذلك مما لايمكن ان يتفق وروح تلك العصور المتقادمة النزاعة الى بسط السلطان في الارض كلها ، هذه الروح التي كانت تخفق في قلوب العرب خفقانها في قلوب الفاتحين العظام قبلهم ، فلم يكن يبحث في حرية الدولة ولا ينظر في قواعد التسوية والتضامن بين الدول . ومع ذلك فقد اعترف المسلمون عملياً بوجود دول أخرى ، وذلك بعقد المعاهدات معها ومشاركتها بالصلات السياسية ، وهذه الصلات اما ان تكون مؤسسة على قاعدة الامان الذي يتفرع عن حق الجوار عند الاقدمين ، او على قاعدة العرف والعادة ، او على قاعدة الوفاء بالعهود والعقود .

* * *

استوقف ناظري وانا أتأمل في تطور المعاملات الدولية وقواعدها بين المسلمين وسواهم امور كثيرة أشرت الى بعضها فيما تقدم وخصوصاً الشروط التي عاقد عليها معاوية ابن ابي سفيان ارمينية وكانت وثيقة استقلالها الداخلي ومحالفتها مع الدولة الاسلامية الكبرى التي هي أشبه بمحالفة حماية بين دولة كبيرة وصغيرة على نحو ما نراه اليوم في المعاقدات التي تبذ فيها بريطانيا العظمى شأن سواها وتحرز قصب السبق على غيرها .

وقد استحسنت كثيراً وتدبرت ملياً وصايا الخلفاء للجيوش في صدر الاسلام . وتذكرت عندها ماعده المحدثون من مفاخر الامة الاميركية في الوصية التي عمل بها قادتها في حرب الفصال سنة (١٨٦٠) واتخذت أساساً لشريعة الحرب الى يوم الناس هذا .

اليس حسناً ماقاله ابوبكر : « لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة وسوف تمرون باقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ٠٠٠٠٠ » ٠

اليس حسناً ما كان يقوله عمر بن الخطاب عند عقد الالوية : « لا تجبنوا عند اللقاء ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا » ٠

وما عسى ان أستثير مثل هذه الدفائن وأبحث عن مثل تلك الذخائر ، إذن لتجاوزت القدر الذي وضعته لهذا المقال ٠ ومهما أوجزت فلا بد لي ان أذكر ان فريقاً من أئمة المسلمين في عهدهم الاول كسفيان الثوري أنكروا فريضة القتال ابتداءً ولا يجب القتال عندهم الا دفعاً للعدوان ، وهذا المذهب يذكرنا بتحريم حروب الاعتداء الذي ما برحت عصبة الامم تسعى له منذ عشر سنين وتدعو اليه حتى كان ميثاق كيلوج ٠

ولا بدَّ لي كذلك ان أشير الى حديث ابي عبيدة في اثناء فتوح الشام فقد كان الصلح جرى بين المسلمين واهل الذمة في أداء الجزية وفتحت المدن على ان لا يهدم المسلمون بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى ان يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم ويذبوا عنهم وعلى ان عليهم ارشاد الضالّ وبناء القناطر على الانهار واصلاح الطرق وعلى ان يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ٠

قال ابو يوسف في كتاب الخراج فلما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيوناً للمسلمين على أعدائهم ٠ فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم وماير بدون ان يصنعوا ، فأتى اهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بان الروم قد جمعوا جمعاً لم ير مثله ، فأتى رؤساء اهل كل مدينة الامير الذي خلفه ابو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك ٠ فكتب والي كل مدينة الى ابي عبيدة يخبره ، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب ابو عبيدة الى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمرهم ان يردوا عليهم ماجبي منهم من الجزية والخراج ، وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا عليكم أموالكم لانه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم ، فلما قالوا ذلك لهم وردّوا عليهم الاموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردّكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردّوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً .

وسيرة عمر بن الخطاب في فتح بيت المقدس (ايلياء) سائرة مشهورة نكتفي بالاماع اليها . ولكننا نذكر قليلاً من سيرة امراء المسلمين ايام الحروب الصليبية التي أطلق فيها عقال النفوس فركبت هواها في سفك الدماء واستباحة الحرمات ، وذلك نقلاً عن المسيو (بورغا) المؤرخ الكبير ووزير معارف رومانية في كتابه الموجز في تاريخ الصليبيين . قال : « لما استرد صلاح الدين بيت المقدس بذل الامان للصليبيين ووفى لهم كل الوفاء بالشروط المعقودة ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم ، حتى ان الملك العادل شقيق السلطان أطلق الف رقيق ، ونودي ان كل من يخرج من بيت معين في المدينة يكون آمناً ، ومنّ على جميع الأرمن . وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة . وأبيح للاميرات والملكة في مقدمتهم بزيارة أزواجهن ، وكان الجنود الذين يصحبون اللواتي أمرن بالجلاء يعطفون عليهن أشد عطف ويواسوهن كل المواساة . ولا يمكن ان يظهر فضل صلاح الدين وكمال خلقه باحسن من تهديده السفن الابطالية حتى ترد اولئك البائسين الى ديارهم » .

وكذلك كانت سيرة الملك الكامل لما أخذ بمخنق الصليبيين في واقعة دمياط فاحاط بهم النيل وهددتهم المجاعة . واليك ماوصف المسلمين به احد الذين حضروا الوقعة من مؤرخي النصارى قائلاً : « هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وابناءهم وبناتهم واخوانهم واخواتهم بطرق شتى ... هؤلاء الذين سلبناهم أموالهم وأخرجناهم عراةً من منازلهم تدار كونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد ان أهلكنا الجوع . ومازالوا يحسنون الينا حتى غمرونا ببرهم واحسانهم لما كنا في ديارهم وفي قبضة أيمانهم . فلو ضاع لاحدنا عبر لما ابطأ ان ردّ الى صاحبه » .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد آن لي بعد ان أوردت طرفاً من قواعد الشرع الدولي في الفقه الاسلامي ان أبين بايجاز ماأراه من اثره في نمو الشرع الدولي عند الاسبانيين . وتاريخ الشرع الدولي يدلنا على انه وجد في بلاد الآخرين نشأته الكبرى وفيها ظهر اكثر المؤسسين لقواعده والمشيدين لاركانه . واذا أثبتنا هذا التأثير استطعنا ان نستنتج منه ان الشرع الدولي الحديث لم يخل من اثر للشرع الاسلامي . وقد بحث كثيراً فيما أبقته فلسفة العرب وحضارتهم من الاثر في الاندلس و بالتالي في اوربة ولكنه قلما عني بالبحث في اثرها من الوجهة الشرعية . على ان مؤلفاً بلجيكياً (المسيو ستوكار) وضع في أوائل هذا العصر كتاباً فيما ابقاه سلطان العرب من الاثر في الشرائع الاسبانية والحالة الاجتماعية .

ولا يمكن تحديد اثر الثقافة العربية في نمو الشرع عند الاسبانيين ، ولكن في اثناء هذه المدة الطويلة التي حكم بها العرب اسبانيا ، عقدت بين الفريقين عرى وثيقة وتمكنت بينهما الصلات المختلفة . وقد أذن العرب للمغلوبين ان يحتفظوا بعاداتهم ويحكموا بسننهم وشرائعهم ، ولكن قواعد العرب وعاداتهم كانت تدخل رويداً رويداً في معاملاتهم مع الاسبانيين او في تعامل هؤلاء بعضهم مع بعض . ومن ذلك الالتجاء الى المحكمين في فصل الخصومات وأشباهه مما الفه الاسبانيون وجروا عليه . فلما جمع الاسبانيون كلمتهم على مناواة العرب واخرجوهم شيئاً فشيئاً من ديارهم كانت هذه القوانين تؤلف القسم الاكبر من شرائعهم .

ثم ان فلاسفة العرب الذين تعلموا فلسفة اليونان وورثوا علومهم ، نقلوا ما تعلموه وورّثوا مادوّنوه مؤلفي القرون الوسطى ، فشهد الناس الخليفة الحكم الثاني في القرن العاشر يفتتح في عهده المجيد تلك الحلقة الزاهرة من العلوم التي تحل المكان الأرفع من الحضارة بما أبقته من الاثر الحميد في اوربة النصرانية[1] وكان العلماء من البلاد الاخرى يؤمون اسبانيا في تلك العصور ليرتووا من مناهل عرفانها ويحملوا من علومها مالا يجدونه يومئذ في فرنسا ولا في ايطاليا . ولم يأت على الفلسفة العربية الا عصران حتى أصابها التوقف فجأة بسبب القلاقل السياسية والغارات الاجنبية وشيء من التعصب الممقوت .

(١) Renan, Averroès et l,Averroisme

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويمكن ان يقال ان سلطان العرب في اسبانيا على الرغم من تقهقره لم يزل مؤثراً في أوضاعها السياسية والاجتماعية والشرعية ، وقد احتفظ المسلمون بعد تغلب الاسبانيين بشرائعهم الخاصة حيناً من الدهر فان سياستهم الحميدة التي كانوا اتبعوها في معاملة النصارى جعلت هؤلاء يواسونهم ويحاسنون من بقي منهم قبل زمن الاضطهاد والاكراه في الدين . وكان للعرب ولليهود ايضاً معاهد علم مستقلة وعلماء منهم يعلمون فيها ، فانتهى امرهم بان سادوا وتمكنوا في قشتالة . فظهر حينئذ اثر الشرق اولاً بتأثير فلاسفة العرب ورجال الأخلاق منهم ، ثانياً باذاعة تآليفهم وترجمتها ، ثالثاً بوجود كثير من علماء قشتالة من محمد اسلامي ويهودي ، رابعاً بما كان يبذله علماء العرب واليهود من العون للنهضة العلمية في هذه المملكة الاخيرة [١] .

وعلاوة على ما تقدم فان المجموعة الثمينة المنسوبة الى الفونس العاشر والمسماة بالاجزاء السبعة لم تخل من اثر ظاهر للشرع الاسلامي وهي تحتوي على الشرع الكنسي والمدني والسياسي والعقوبات بتفصيل لا حدّ له من الاحتمالات والفروض . وقد فصلت شرائع الحرب فكانت هذه المجموعة مصدراً عظيماً لما قرر من قواعدها فسبقت اسبانيا بذلك سبقاً عجيباً في القرون الوسطى بشرائعها وخصوصاً بمجموعة الاجزاء السبعة . فكانت هذه تتقدم ما عند الشعوب الاخرى بقرون . وكأن اسبانيا على ما يقول الاستاذ (نيس) ورثت الرومان مباشرة في وضع الشرائع [٢] .

ثم قال كذلك في مقام آخر : « ان مجموعة الأجزاء السبعة تدلنا دلالة واضحة على صفة المقاتلين وتنظيم توزيع الغنائم . وقد امتازت اسبانيا على سائر اوربة ، انها حافظت على الاختيار في جيشها ، على حين ان سائر الشعوب الغربية في القرون الوسطى كانت تعدل عن الاختيار شيئاً فشيئاً وتجعل المراتب العسكرية مما يرثه الابناء عن الآباء . وبقي في اسبانيا المقدمون والقواد ينتخبون انتخاباً » .

فنحن لا يسعنا بعد ذكر ما تقدم الا ان نشير الى نصيب العرب في تقدم الشرع عند

---

(١) Bollester : Histoire de l' Espagne .

(٢) Les Origines du droit International .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسبانيين ، فالعرب — كما قال (جول مهل) مع شيء من المبالغة — هم والرومان اقدر الشعوب في التشريع [1] . وتقسيم مجموعه الاجزاء السبعة يذكرنا بتقسيم كتب الفقه الاسلامي ، ونحن نقول في الختام بقول الاستاذ (نيس) نفسه . ان شريعة الحرب والأنظمة العسكرية عند الاسبانيين ، تأثرت كثيراً بشريعة الحرب عند المسلمين كما تأثرت فلسفتهم بفلسفتهم وآدابهم بآدابهم .

* * *

وقد وضعت رسالة باللغة الفرنسية في موضوع الشرع الدولي في الاسلام ، قدمتها لمعهد الحقوق في جامعة باريس ، وستنشر عما قريب في اللغة العربية مع تهذيب واضافة وقسمتها الى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة . هذه سياقتها :

المقدمة في تطور المملكة الاسلامية وما يتصل بها من تاريخ العرب وسيرة الرسول والفتوحات والنزاع بين النصرانية والاسلام .

الفصل الاول في الشرع الدولي والشرع الاسلامي وما يضاف الى ذلك .

الفصل الثاني في اوضاع الدولة وشؤون الخلافة وما اليهما .

الفصل الثالث في شريعة الحرب وما يذكر معها من اساليب القتال وسياسته وتوزيع الفيء والمغانم وحروب المصالح .

الفصل الرابع في قواعد السلم وما يلحق بها من الامان وعقد الذمة والجزية والخراج والمهادنات والمعاهدات .

الفصل الخامس في الصلات السياسية والعلاقات التجارية وما يذكر معها .

الخاتمة في تلخيص بعض ماتقدم وايراد وجوه الشبه والتباين بين قواعد المسلمين وقواعد الغربيين في الشرع الدولي .

هذا ولم احفل بالعلاقات الدولية في زمن الترك العثمانيين الا اذا جاءت عن عرض ، لانها تخص في الغالب تاريخ السياسة والشرع الدولي في اوربة ، وقد عولجت في الكتب التي أفردت لهذه الأبحاث .

نجيب الارمنازي
دكتور في الحقوق

(١) ص ٤٣١ Journal Asiatique, 3e Série t. XVII

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ادبنا القومي

— ٥ —

في الادب العامي

وقد آن لنا ان نورد عليك صدراً من الادب العامي وسنتحرى ، فيه قدراً يسيراً من متخيره . اما تقسيم أنواعه واقامة الحدود لكل منها ، والبحث في اصله ومنجمه ، وكيف درج وكيف سار وكيف تلون ، فذلك كله مما يحتاج الى دراسات طويلة لا احسبها استقرئت او استوت بالتمحيص العلمي الى الآن ، على ان موضوعنا الذي نعالجه اليوم عن هذا في غناء . ويحسبنا ان نقرر محققين ان الادب الذي يدركه اكثر من تسعة وتسعين في المائة من سكان هذه البلاد هو هذا الادب العامي ، وهو الذي يتذوقونه وتستريح به نفوسهم وتتحرك له عواطفهم .

واعلم ان الزجل والموالي مشتقة في الاصل من أوزان الشعر ، وان كانت تنحرف عنها بقدر كبير او صغير ، ثم انها مصبوبة في قوالب عامية او أدنى الى العامية . فكتابتها بالعربية الخالصة او النطق بها كذلك فيه افسادها وإضاعة لأوزانها وإخراج لها عن جميع حدودها . قال صاحب السفينة في الكلام على فن الموالي مانصه : « وهو من الفنون التي لا يلزم فيها مراعاة قوانين العربية بل قال جلال الدين السيوطي انه يجب فيه اللحن ، وعليه فيجوز استعمال الألفاظ الجارية في تخاطب العوام من الناس لفظاً وخطاً معاً ، لانك لو نطقت به حسب التخاطب ، واخذت تكتبه على قوانين الرسم المعتبرة مراعياً للحروف لغيرت وضع ما نطقت به وخالفت حروفه وكسرت وزنه ، وفوّت غرض الناظم عليه من تجنيس او غيره » اهـ .

هذا وللزجل ضروب وأشكال وتقاسيم لا يكاد يدركها الاستقصاء ، وهو على هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل يوم في ازدياد بما تولد قرائح الزجالين . اما الموالي فتنحصر في أنواع معدودة لا تكاد تعدوها . وليس هنا موضع تفصيلها .

والزجل والموالي كلاهما يعمد فيه الى التماس المحسنات البديعية ، ومنهـا التجنيس ، في الموالي بنوع خاص ، ولقد يبالغ في هذا الى حد التعسف والتلفيق واستكراه الألفاظ ولو أدى ذلك الى استهلاك الاغراض والتدلي الى أسخف المعاني .

ولقد يظهر لك وانت تستعرض الموالي ان اكثر ناظميها انما يدورون باذهانهم قبل كل شيء ليتصيدوا الجناسات من مختلف الألفاظ حتى اذا استوت لهم جعلوا ينظمون من الألفاظ مايفضي اليها وينتهي بها واقعة ماوقعت معانيها . من ذلك قول القائل :

ان زارك البدر بالوعد الذي اوفاه اقبل وقبل خديده ان سمح او فاه
واستغنم الوصل منـه أيسره اوفاه ولا عليك من عذولك ان وشى اوفاه

وقول غيره :

فكري وسهدي وكثر الدمع وصيبه في حب من زاد بالهجران وصبي به
والقلب زاد احتراقه فيـه ولهيبـه لولا يجيني حبيب قلبي يسليني
لاحترق في لظي من كثر ولهي به

وقول الآخر :

اصل اشتباكي مع المحبوب أهدابه لأوهب الروح لمن جابه واهدى به
وحق موسى كليم الله وأصحابه مالي مؤانس بطول الليـل يؤانسني
إلا خياله أنام به الليل واصحا به

وقول الآخر :

بشراك يافلب آدي اللي كنت به موعود
زارك حبيبك وطاب أنسك على ما وعود

ولا تنس قبل كل شيء ان تنطق بالألفاظ عامية ، وتبدل القافات همزات حتى يستقيم لك الكلام .

والى جانب هذا لقد ترى في هذا الادب (البلدي) اشياء تهز وتروع . انظر كيف يقول الموال الصعيدي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا قلب لا كويك بالنـار وان كنت عاشق لأزيدك
يا قلب حملني العـار بتريد من لا يريدك ؟

ويتصل بهذا قول الآخر :

مسكين من يطبخ الفـاس و يريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس و يريد من لا يريده

ثم تأمل قول القائل :

ما العيش إلا العيش وان كان ناشف بله
والعورة يسترها الخيش فضك من دا كله

أرأيت في شعر الشعراء ونثر النثار ما يعلو على هذا الكلام (فضك من دا كله) ولو قد تعمد أديب ان يشرح هذا المصراع وحده ويدل على ماتحته من دقائق المعاني لاحتاج الى أسطار طويلة ، ثم هيهات له ان يشعرك كل مافيه من حلاوة .

وانظر قول القائل :

خايف اقول له ، يقول له منيه مرعوب خايف
بالله يا قله قللـه حين توردي عالشفايف

وهذا كلام يحتاج الى تفسير يسير فابدل القافات منه اولاً (جيمات) على منطق اهل الصعيد وسائر ريف مصر على التقريب . والناظم يناجي (قلة) الماء ويتخذها الى هواه رسولاً فهو يقول : « انا خائف من ان أقول له فيقول لا ! فانا منه في رعب وخوف سألتك بالله يا (قله) ان تقولي انت له حين تردين على شفتيه . أرأيت ابداعاً في الطلب كهذا الإبداع ؟ هو يطوي اولاً مقول القول ، فلم يسأل (القلة) الا ان تقول ، ولكن تقول ما ذا ؟ هذا ما اخذ نفسه بالأدب عن التصريح به او تركه للذهن الدقيق يفهمه من قوله في غاية الموالي (حين توردي على الشفايف) ! !

وقول القائل (ويروى للمرحوم محمد سلطان باشا) .

اصل البلاوي ما هو انتم وقول العذول كان صايب
شاورت قلبي ما هنتم فراق الأحبة مصايب

وانظر بعد هذا الى ضروب من البلاغة فيما يدعونه بالغناء (المحلاوي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سبع سواقي بتنعي ما طفوا لي نار
يامنية القلب قل لي إزاي عشق الجار
يبقى النظر في النظر والقلب فايد نار

أترى ، بعيشك ، هذا يقل حلاوة او براعة في اعلان الوله عن قول المجنون :

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وانظر الى قول القائل ايضاً :

طليت ياحلو من شباكك العالي ياهل ترى طلتك للناس ولا لي ؟

وقول القائل :

امانة الله في دي الغيبة افتكرتو ناش ياللي رضيتم بعادنا واحنا مارضيناش
سنتين نستنظر رسول من يمكم ولا جاش والصبر اهوه فرغ والدمع ما بنحاش

وقول غيره :

سافرت وادي اليمن وبعدت عن عيني مثلك ظريف المعاني ما رأت عيني
وان كان غيرك قمر ما ننظره عيني
ياللي انا الورد وانت الماء تسقيني ان غبت دبلتني وان عدت تحييني

وقول الآخر :

يا شمس قبل ان تغيبي خبري اهلي بي انت سبب غربتي عنهم وتعذيبي
خايف يصادفك غمام ياشمس يخلي بي

ولا شك في ان من أحسن ما اثر من الشعر في بلاغة الاشارة قول الشاعر :

فاستبق عينك لا يودي البكاء بها واكفف بوادر دمع منك تستبق
فما الشؤون وان جادت بباقية ولا الدموع على هذا ولا الحدق

* * *

فهل تخلف عنه ناظم هذا (المذهب) :

على الملاح انت لأمير وانا على العشاق كده

وهل تخلف عنهما الشيخ النجار حين يقول (واني لأرويه ولا حياء في العلم) .

ياأهل البلد شفتوش عيلة بالوصف ده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأم والبنت تلدع والواد كده

* * *

والبنت نادت في الجرة يا مسلمين
لا امي ولا أختي حرة واطلع لمين

أرأيت البلاغة البالغة في قوله (والواد كده) ؟ ثم أرأيت كيف أدت كلمة (تلدع) من المعنى ما لا يغني في أدائه لفظ آخر ، وهي للمرأة التي لا هي بالحرة الخالصة ، ولا هي بالبغي الخالصة . بل لقد جرى العرف على انها التي تعيش عيش الحرائر ، ولكنها تتثاب الخنى وقتاً بعد وقت Demi Mondaine كما يقول الفرنسيون . ولذلك ترى لها هنا بنتين وولداً .

ثم انظر بعد ذلك كيف كان هذا الكلام سلساً جارياً على الطبع حتى لكأنك تسمع حقيقة بنتاً تدلي الى الناس بعذرها فيما تتورط فيه من الخروج عن الفضيلة والانحراف عما تقضي به آداب الدنيا وآداب الدين معاً !

وأروي لك شيئاً لا يعجبك اوله ولكن سيبهرك آخره :

الحديد لو انطبع لان وانت ما تلين يامعجباني
انا مستحي وانت غضبان طالت علينا الليالي

ولعل (طالت علينا الليالي) تدعو اليك قول العباس بن الأحنف :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم

ثم كيف ترى في قول القائل :

(الليل أهو طال وعرف الجرح ميعاده) الخ .

ولا يذهب عنك قول القائل :

ساهي الجفون ما كفاك الهجر يا ساهي سهران بتلعب وعن وصل الشجي ساهي

ثم انظر كيف يقول القائل في (طقطوقة) :

يا ست ليه المكابدة مش يكفي قلبي المناهدة
تكايدني ليه حاينوبك ايه
مفيش من النقل فايدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانظر الى قول الآخر في (طقطوقة) ايضاً على لسان جارية تطالع أمها بهواها :

يا حمامه يا أمه عدي المنصورة بجلاجله الفضة وشعور : رة

يا شيلة عيونه يا أمه يا ضني حالي

وقبل ان أفارق هذا الموضع أذكر انني كنت في سياحة نيلية مع شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، وسمع ملاحاً يغني :

والفرش حيران بهم بالليل ما ناموا

فارتج رجة عنيفة من (الفرش حيران بهم) ورأى من فوره ان هذا المعنى البديع ينبغي ان ينظم في شعر العرب فنظم بيته المأثور :

حار الفراش بنا مما نكابده وضاق صدر الليالي عن تشكينا

وبعد ، فقد نلاحظ وخاصة في الموالي ، ان الكلام كثيراً مايعلو فيها الى حد الفتنة ، ثم مايلبث ان يهوي الى الحضيض حتى لايصبح بين أجزائه شيء من التجانس والاتساق . وذلك بالضرورة من اثر ضعف النظام ، فان احدهم لتجيش نفسه بالمعنى الكريم فينفثه ثم ينقطع به النفس فلا يستطيع ان يتم المقال الا بالفصل المتهافت الذي لا يثرامى لغرض ولا يتراءى فيه عاطفة ، اما اذا كان الناظم قوياً فانك وان رأيت بعض أجزاء الكلام يعلو على بعض فان السلامة مكفولة له على كل حال ، وهذا تحسه فيما نظم صبري في هذا الباب وما ينظم شوقي وأضرابهما من أئمة اهل البيان .

ومن الأدب الشائع في العامة (القصص) واكثرها شيوعاً في المدن والقرى على السواء أمثال قصص ابي زيد الهلالي والزناتي خليفة والبردوبل بن راشد الخ . على ان بعض العامة يستريحون بالاستماع الى قصص الف ليلة وليلة ، بل وعنترة بن شداد ، على انه قد شاعت في هذا العصر القصص الجديدة (الروايات) وهي تلقى من الناشئين في التعليم إقبالاً ايما إقبال .

* * *

ومن الوان الأدب التي لم يعن الخاصة — مع الأسف الكثير — بالتماس وسيلة لكتابتها واثباتها مع انها انما تعنى الخاصة وأشباه الخاصة — التطرف او كما يسميه المصريون (بالقفش) وهو قائم على قوة البديهة وسلامة الذوق وسرعة وثوب الذهن الى ملابسات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعنى وطبع الكلام في صورة عجيبة تبعث الطرب وتثير الضحك .

وخير هذا النوع يجري على السن سكان المدن ، اما اهل الريف فلهم تطرف ولكنه مليخ لا طعم له .

وممن أعرف ممن لهم اكبر الحظ في هذا النوع المرحومون الدكتور بكير ، محمد بك البابلي ، محمد رشاد بك ، محمد المويلحي بك ، الدكتور رأفت بك ، خليل خيرالدين بك امام العبد افندي ، وما زال في الاحياء والحمد لله كثير .

وانما أردت (بالوسيلة) لكتابة هذا الادب وتدوينه ، تلك التي تحفظ له رونقه وبهاءه . فانه اذا أثبت بالعربية حال لونه ونضب ماؤه .

ومن آداب العامية النكات البلدية المعروفة (بالقافية) وقد أسلفت عليك انها من توليد مخ الحشاش المصري ، وهي قائمة على التلفيق وحده ، ذلك ان يعمد الرجل الى كلمة مأثورة او جملة معروفة في اي غرض من الأغراض فيسبقها باخرى حتى اذا اتصلت بها حرفتها عن وجهها وأخرجتها الى لون من التطرف مضحك عجيب .

ولقد كان هذا النوع من التطرف شائعاً في الاعراس ، وله رجال يحفظونه ويحذقونه فكان اذا انقطع المغني للاستراحة قام رجلان فتطارحا النكات في شتى المعاني ، حتى اذا غلب احدهما في باب من القول تحول بصاحبه الى باب آخر و يدعى عندهم (قافية) كذا والناس مما يسمعون في ضحك شديد ، وتصفيق حديد .

ثم الامثال العامية وما أدراك ما الامثال العامية ! . حقاً لقد تناولت كل شيء وأصابت كل غرض ، وتدسست الى كل معنى ، فما يكاد يعرض لك رأي او يسمح لك خاطر ، وخاصة في تقرير مبدإ ثابت ، او امر عام واقع ، الا تهيأ لك ان تصل به مثلاً عامياً غاية في الدقة وحسن الاداء .

ولعل العامية في هذا الباب من أغنى لغات العالم .

وهناك ألوان من الادب العامي آخر مما يتغنى فيه العامة و يتناشدون ، ومما يتملحون به و يتفاكهون واني أدع الكلام فيه لمن يريدان يتجرد في حصر أنواع الأدب العامي وضبطها ، والابانة عن حدودها واصلها وتصرفها على الزمان .

و بلغ القول بعد هذا ان من ينفي عن (ادبنا القومي) كل هذ الادب الذي تعيش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به لامة كلها على جهة التقريب ، ويزعم انه محصور في الادب العربي الخالص (الشعر والنثر الفني) وهذا ما لا يدركه الا القليلون ، ولا يتذوقه الا الأفلون — فذلك احد رحلين : رجل لا يعرف الأدب ، او رجل لا يعرف مصر .

« باحث »

رسالة الكرم

– ٩ –

« الحطاب والأجمام »

الحطاب كالكتاب ان يقطع مايبس من شكر الكرم حتى ينتهي الى حد ماجرى فيه الماء وزمانه حين يجري الماء في العود .

و يقال أحطب العنب واستحطب اي احتاج الى ان يقطع شيء من أعاليه .

واحطب الكرم حان ان يقطع منه الحطب . و حطبه ، قطعه .

واحطب عنبكم واستحطب حان ان يعنب [1] .

واستحطب عنبكم فاحطبوه حطباً اي اقطعوا حطبه .

ويسمى مايقطع منه الحطاب والمحطب المنجل الذي يقطع به .

قنب الرجل العنبَ تقنيباً قطع عنه مايفسد حمله . وقنّب الكرم قطع بعض قضبانه للتخفيف عنه واستيفاء بعض قوته . وقنبوا العنب اذا قطعوا عنه ماليس بحمل وما قد يؤذي حمله بقطع من أعلاه . قيل هذا حين يقضب عنه شكيره رطباً .

قضب الكرم تقضيباً قطع أغصانه وقضبانه في ايام الربيع . والمقضب والمقضاب

---

(١) هكذا نقله في التاج عن الاساس وقد رأيته في نسخة الاساس ان يُقَنَّب ولعل الصواب ان يُقَنِّب من باب التفعيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المنجل الذي يقطع به . وقُضابة الشجر ما يتساقط من أطراف عيدانها اذا قضبت . وقضابة الكرم والشجر ما يأخذه القاضب .

أَجَمَّ الرجل العنبَ اذا قطع كل ما فوق الارض من أغصانه . وفي المخصص فاذا بلغ الكرم ان يقطع فاضل قضبانه للتخفيف عنه واستيفاء قوته قيل قُضِّب وقُتِّب وقُلِّم (١) .

فاما الأجمام فقطع جميع ما على الارض منه يقال اجمّ العنبَ قال ابو حاتم وناس يُجمون العنب كل عام ولا يغرسون والجمّ ان يقطع من وجه الارض ثم ينبت قال يقطعونه من وجه الارض عامين ثم يتركونه في الثالثة فلا يقطعونه حتى يكبر شجره فيحمل .

وقد تقدم معنى أقطع فلاناً قضباناً من الكرم اذن له في قطعها والقطيع الغصن تقطعه من الشجرة . والقِطْع كالقطيع والجمع أقطاع .

وتقدم معنى أغلى الرجل الكرم ومعنى غمله .

حبك عروش الكرم قطعها .

العَتَلة حديدة يقطع بها فسيل النبات والكرم .

ويقال رشَّح العنب ترشيحًا قام عليه وأصلحه . وفي حديث ظبيان يأكلون حصيدها و يرشحون خضيدها اي المقطوع من شجر التمر قال في اللسان وترشيحهم له قيامهم عليه واصلاحهم له الى ان تعود ثمرته تطلع كما يفعل بشجر الاعناب والنخيل .

« أنواع العنب »

— العنب الابيض —

الملاحي كغرابي و يشدد (٢) . عنب ابيض طويل الحب قال ابوقيس بن الاسلت :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كنعقود ملاحية حين نورا

وقال الشاعر :

---

(١) في اللسان قَلَم الظفر والعود والحافر يقلُمه قَلْماً وقَلَّمه قطعه بالقلمين واسم ماقطع منه القلامة . وقال والقلمان الجلمان لا يفرد له واحد .

(٢) في المخصص والتشديد قليل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن تعاجيب خلق الله غاطية يعصر منهـا ملاحي وغـريب

والملاحي نوع من التين صغار املح صادق الحلاوة ويزبب .

العنب الرازقي : ضرب من عنب الطائف أبيض طويل الحب والرازقيـة والرازقي الخمر المتخذ من هذا العنب . وفي الاصمعي الرازقي أبيض داخلتـه زرقة طوال الحب . وفي التهذيب الرازقي هو الملاحي . ويقال له الطاهر والطهار .

النُواسي : بالضم[1] عنب أبيض عظيم العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو جيد الزبيب . وفي اللسان مدور الحب متسلسل[2] العناقيد طويلها مضطربها . قال الازهري لا أدري الى اي شيء نسب الا ان يكون مما نسب الى نفسه كدوار ودواري وان لم يسمع النُواس هنا . وفي المخصص ومنه النَّوَامي والنُّوَاسي وهو الشامي وهو كأنه أذناب الثعالب وهو عنب أبيض كثير العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو ويزبب .

الاِقماعي : قال في المخصص الالف منه مكسورة وقيل الأقماعي وهكذا ضبط في اللسان . عنب ابيض واذا انتهى منتهاه اصفر فصار كالورس وحبه مدحرج كبار مكتنز العناقيد كثير الماء ليس وراء عصيره غاية في الجودة وعلى زبيبه المعول . وهو غلة الناس واصل العنب الذي يعتمد عليه . والاقماعي ضربان فارسي وعربي . فالعربي ابيض عظام الحبة كثير الماء والفارسي اعظم حباً من العربي واقل ماءً واكثر شحماً .

التَّبُوكي : ضرب من عنب الطائف أبيض قليل الماء عظيم الحب نحو من عظم الاقماعي ينشق حبه على شجره كذا في اللسان والتاج . وزاد ابن عباد كأنه نسب الى تبوك . وفي المخصص والتبوكي وهو عنب احمر كبار كالضروع في العظم الا ان الضروع أحلى منه واكبر عناقيد ويزبب كأنه التمر الشهريزي في الكبر . وقد ذكر في كتاب الاصمعي : الشوكي : اكثر من مرة وعرفه بنحو ماتقدم عن اللسان والصواب التبوكي كما ذكرناه .

---

(١) هكذا ضبطه في التاج وضبط في اللسان بالشكل مثله وفي الاصمعي والنُّوَّاجي والنُّوَّامي الواو مشددة ثم قال والنُّوَّامي الشامي ولم اجد النواجي فيما لدي من كتب اللغة ولا من ضبط النوامي بتشديد الواو كما ضبط في كتاب الاصمعي .

(٢) كذا في اللسان وفي الاصمعي متسلسل العناقيد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أطراف العذارى : عنب أبيض طوال كأنه البلوط يشبه باصابع العذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع متداحس[1] وقد يزبب كذا قال في المخصص . وفي الاصمعي أجود العنب الأبيض أطراف العذارى والضروع وهما متقاربان كل واحد يشبه صاحبه يقال هذا عنقود من الأطراف . وقال في موضع آخر واما الأطراف فابيض طوال رقاق وفي التاج أطراف العذارى ضرب من العنب ابيض رقاق يكون بالطائف يقال هذا عنقود من الاطراف كذا في الأساس .

وفي اللسان وأطراف العذارى عنب أسود طوال كأنه البلوط يشبه باصابع العذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع . ثم قال وقيل هو ضرب من عنب الطائف أبيض طوال دقاق .

هذه أقوال هؤلاء الائمة في تفسير أطراف العذارى . وهو متضارب وقولهم يشبه باصابع العذارى المخضبة يدل على انه غير ابيض . والذي يظهر لي انه وقع التباس في هذا النوع من العنب فان هناك نوعاً آخر يقال له أصابع العذارى وهو اسود كما يأتي فعلى هذا ينبغي ان يكون الأبيض أطراف العذارى والأسود أصابع العذارى و يؤيد ذلك قول الأصمعي أجود العنب الأبيض أطراف العذارى وقوله : واما الاطراف فأبيض ، وقول الاساس : ابيض رقاق ، فتأمل .

الآء بوزن العاع عنب ابيض يأكله الناس ويتخذون منه رُباً وقيل هو ثمر السرح .

الناهر والنهر ككتف العنب الأبيض هكذا ذكره في القاموس ولم يحله .

الكُلافي بالضم عنب ابيض فيه خضرة واذا زبب جاء زبيبه اكلف[2] ولذلك سمي الكلافي . وقيل هو منسوب الى كُلاف وهو بلد في شق اليمن معروف كما نسبوا الجرشي والتبوكي والتُرَبي[3] .

( ) يقال دحس الزرع اذا امتلأ حباً ودحس الشيء ملأه ودحس السنبل امتلأت اكمته من الحب ودحس الصفوف زاحمها بالمناكب . (٢) في التاج ادهم أكلف .

(٣) هكذا قال في المخصص ولم ينعته ولعله منسوب الى تربة كهمزة وهو وادٍ بقرب مكة على يومين منها وقيل وادٍ للضباب طوله ثلاث ليال فيه نخل وزروع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القُبَر كصُرَد عنب ابيض فيه طول وعناقيده متوسطة ويزبب ·

الرَعْناء عنب بالطائف ابيض طويل الحب هكذا في اللسان والتاج · وفي الاصمعي عنب له حب طويل · ولم ينعته ·

الضروع بالضم عنب ابيض كبير الحب قليل الماء عظيم العناقيد منه[1] الزبيب الذي يسمى الطائفي وعناقيده متراصفة الحب · وفي الاصمعي واما الضروع فأبيض وهو اطول العنب حبًا واقله حُبَة وقد تقدم قوله ان الضروع يشبه اطراف العذارى ·

الوَيْن : العنب الأبيض عن ثعلب عن ابن الاعرابي وانشد :

كأنه الوَيْنُ اذا يُجْنى الوين

وقال ابن خالويه الوين العنب الاسود والطاهر والطهار العنب الرازقي وهوالابيض وكذلك الملاحي وقد تقدم هذا ·

الشآمي عنب ابيض فاذا أينع احمرّ هكذا قال الاصمعي · وقال في موضع آخر · والنواسي الشامي وقد تقدم عن المخصص نحوه ·

الجُرَشيّ كقرشي ضرب من العنب ابيض الى الخضرة رقيق صغير الحبة وهواسرع العنب إدراكاً · وزعم ابو حنيفة ان عناقيده طوال وحبه متفرق قال وزعموا ان العنقود منه يكون ذراعًا كذا في اللسان · ثم قال ومن الاعناب عنب جرشي بالغ جيد ينسب الى جرش[2] · وفي المخصص الجرشيّ وهو اطيب العنب كله وهو اسحر[3] رقيق يبكر فيلح عليه الناس وقد يزبب وعناقيده طوال وحبه متفرق يكون العنقود منه ذراعًا

(١) في التاج مثل الزبيب الخ ·

(٢) جرش بضم الجيم وفتح الراء مخلاف باليمن من جهة مكة نسب الى جرش وهولقب منبه ابن أسلم بن زيد بن الغوث بن حمير وجرش بفتح الجيم والراء بلد بالشام وفي التاج بلد بالاردن من فتوح شرحبيل بن حسنة ·

(٣) السَحَر والسُحْرة بياض يعلو السواد يقال بالسين والصاد الا ان السين اكثر مايستعمل في سحر الصبح والصاد في الالوان يقال حمار اصحر واتان صحراء وقيل الصحرة لون الاصحر وهو الذي في رأسه شقرة وقيل حمرة تضرب الى غبرة ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي الاصمعي فأما الجرشي فأبيض صغار الحب اول العنب إدراكا ·

الجُرَثي كقرشي عنب كجرشي كذا ذكره في التاج ·

الَبيْضَة بالفتح عنب بالطائف أبيض عظيم الحب ·

حَبَلة عمرو بالإضافة ضرب من العنب بالطائف بيضاء محددة الأطراف متداخضة العناقيد كذا في اللسان وفي التاج والمخصص متداخصة وفي الاصمعي متداخشة ·

ولعل متداخضة مأخوذة من الدحض بمعنى الدفع او محرفة عن متداخصة كما جاءت في عبارة التاج والمخصص ولعلهـا من دخصت الجارية من باب منع دُخوصاً · امتلأت لحما [1] · فهي دَخُوص ·

واما متداخشة فلعلها من دخش كفرح اذا امتلأ لحما ·

السُكَّر بالضم وتشديد الكاف المفتوحة عنب يصيبه المرق فينثر فلا يبقى في العنقود الا أقله وعناقيده أوساط وهو ابيض رطب صادق الحلاوة عذب وهو من احسن العنب واظرفه [2] ويزبب (والمَرَق آفة تصيب الزرع) ومرقت النخلة كفرح نفضت حملهـا بعد الكثرة · وفي اللسان مرقت النخلة وأمرقت سقط حملها بعد الكبر والاسم المَرْق · ومَرَق حب العنب يمرُق مُرُوقاً انتثر [3] من ريح او غيره ·

الَجوْزة بالجيم ضرب من العنب ليس بكبير [4] ولكنـه يصفر جداً اذا أينع هكذا قال في المخصص واللسان والأصمعي وفي التاج ولكنه يصغر جداً والظاهر انه تحريف ·

الَحوْزة بالحاء عنب ليس بعظيم الحب نقله في التاج عن الصاغاني ولم ينعته ·

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي

—((*))—

(١) كذا في اللسان وفي التاج شحماً · (٢) في اللسان والمخصص من طرائف العنب ·
(٣) في اللسان انتشر · (٤) في الاصمعي ليس بعظيم الحب غير انه الخ ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آراء وافكار

—«»—

التفاؤل والتشاؤم[1]

« بكلمات اللغة »

من الناس من يتشاءم بكلمات اللغة فلا يرضى ان يستعمل منها في كتابته او خطابته الا ما كان لطيف الجرس . لذيذ الوقع في النفس . لكننا اذا أقررناه على تشاؤمه هذا ووافقناه على اطّراح كل كلمة من كلمات اللغة احتكم فيها بذوقه الشخصي — اضطررنا ان نكنس من بين سطور معاجمنا كثيراً من الكلمات في وقت نحن محتاجون فيه الى تنمية اللغة وتكثير سوادكلماتها : فاذا كنا لا نجوز استعمال الكلمات غير القاموسية من مولدة . ودخيلة معربة . ولا يمكننا ان نضع كلمات وضعاً جديداً ثم بعد ذلك كله أخذنا نتشاءم بالكلمات التي نشعر فيها ببعض الغرابة او الكراهة في السمع ونحكّم ذوقنا الخاص في هذه الغربة او الكراهة — كيف يتيسر للغتنا ان تجاري اللغات الحية وتتسع دائرتها لمطالب الحياة الجديدة . فعلينا إذن ان نقاوم هذا التشاؤم اللغوي بتفاؤل لغوي مثله او أشد منه : فنتفاءل بكلمات اللغة . ونعمل على إحيائها مهما احسسنا لأول الامر بكراهتها في السمع . فان تداولها وتكرر استعمالها كفيلان بتهذيبها . وصقل خشونتها . والشرط الاصلي في جواز استعمالها مراعاة المقامات : اي ان يعرف الكاتب او الخطيب كيف يستعمل الكلمة وفي اي المقامات يجلسها .

فاذا أُوتي حظاً من الذوق اللغوي وعرف كيف يميز بين الكلمات . وما تصلح كل واحدة له من المقامات . راجت الكلمات التي كنا نعدها غريبة او متنافرة وحسن وقعها في الأذواق . وتعاورتها أقلام الكتاب وألسنة الخطباء : اذا لم يكن ذلك في كل موطن ففي مواطنها الخاصة . بها ولنضرب لذلك المثل الآتي :

---

(١) قرئت في احدى جلسات المجمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا قال العرب (فلان سَبْط الشعر) أرادوا انه مسترسل الشعر غير مجعّده . و (سَبْط القامة) اي ممتدّها طويلها . واذا قالوا : (فلان سِبَطْر) كان معناه ايضاً الطويل الممتد القامة . فالراء في (سبطر) هي قطعاً زائدة في آخر كلمة (سبط) لاتحادهما في المعنى . وكما تكون الزيادة في آخر الكلمة تكون احياناً في اولها وهذا نحو اقشعرّ من (قشعر) فان قافها زائدة في اول كلمة (شعر) لان معنى (قشعر) قفّ شعره وانتصب .

ثم ان العرب اذا وصفوا الاسد بكونه (سِبَطْراً) حصل بعض التغيير في معنى الامتداد : ذلك لأنهم يريدون امتداده عند الوثبة على الفريسة . فامتداده في تلك الحالة هو امتداد جسمه او امتداد المسافة التي يقطعها .

واذا قالوا (اسبطرّ) فلان على وزن (اقشعرّ) أرادوا معنى الاضطجاع : لان المضطجع يمدّ بدنه على الارض .

ومن الادلة على ان الاسبطرار هو امتداد الجسم وانبساطه ماحكاه علماء اللغة قالوا : حاكمت امرأة صاحبتها الى (شُرَيْح) القاضي في هرّة بيدها . ومع المدعية درص هرة . ودرص الهرة ولدها الصغير (وكذلك ولد الأرنب والجرذ ونحوهما في الحجم كله يسمى درصاً) . فقالت المدعية : ان الهرة هرتي وهي أمّ هذا الدرص الذي بيدي . وقالت الاخرى كلاّ وانما هي هرّتي . ولما جاء دور الكلام للقاضي (شريح) فصل القضية بينهما على هذه الصورة :

أدنُوا الدرصَ من الهرة فان هي قرّت (اي سكنت) ودرّت (اي سال الدرّ من ثديها) واسبطرت (اي امتدّت على الارض متهيأة للارضاع) فالهرة للمدعية . وان هي فرّت وتقبّضت وازبأرّت (اي انتفش شعرها) فليست لها (لان الهرّة لا تهرب من ابنها الصغير عادةً) .

هذا هو معنى اسبطرّ الحقيقي اوالأصلي أعني امتداد الجسم . وضد (اسبطرّ) بهذا المعنى تقبّض وتكمّش وتقلّص واختنأ وتجمّع الخ .

ثم توسع العرب في (الاسبطرار) فاستعملوه في معنى السُرعة وأن يمضي السائر أمامه قُدُماً من دون ان يُعَرّج او ينثني : فقالوا : (اسبطرّت الإبل) اذا أسرعت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنما سمّوا السرعة اسبطراراً لان المسرع يمتد جسمه بطبيعة الحال .

ومن استعمال الاسبطرار بمعنى السرعة قول عمر بن ابي ربيعة :

(قالت لها أُختها تعاتبها لَتُفسدنّ الطواف في عمر)
(قومي نصدّي له لِيُبصرنا ثم اغمزيه يا اخت في خفر)
(قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّت تسعى على اثرى)

فقول عمر (اسبطرّت) يريد انها أسرعت وجدّت في الجري خلفه . ويروى (ثم اسبطرت تشتدّ في اثري) .

وليس في قول هاتين الفتاتين مايدعو الى الريبة او سوء الظن في اخلاق عمر وهو نفسه الذي يقول :

(إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظّ لي فيه إلا لذة النظر)

بقي علينا قول عمرو بن معدي كرب الزُبَيْدي وهو من ابيات الحماسة :

(ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرّت)

مامعنى قوله (اسبطرّت) وهل ضميره يرجع الى الخيل ام الى جداول الماء المنسابة بين الزرع ؟ وعلى كلٍ هل (الاسبطرار) هنا بمعناه الاصلي اعني امتداد الجسم ؟ فان الماء يمتدُّ على الارض والخيل تمدّ اجسامها وهي مسرعة — او بمعناه الفرعي : وهو الاسراع : فان الماء يسرع والخيل تسرع — كل ذلك جائز .

ومن توسع اهل اللسان في الاسبطرار انْ نقلوا معناه من الامتداد الحسي الى الامتداد المعنوي من ذلك قول الحريري في احدى مقاماته :

(قد دفع الليل الذي اكفهرا الى ذراكم شعشعاً مغبرا)
(اخا سفار طال واسبطرّا) الخ

وضمير (اسبطرا) راجع الى السفار اي السفر فهو يقول ان سفره طال امده وامتد ولايخفى ان امد السفر وزمنه ليس امراً محسوساً بل معقولا .

و يقول قائل : ولكن ما الفائدة من تحليل كلة الاسبطرار وبيان اشتقاقها وطرائق استعمالها اذا كانت غريبةً لايمكن اقتباسها في الكتابة والخطابة .

اقول بل ينبغي ان نحييها بالاستعمال بل نحيي ما كان اقبح لفظاً منها بشرط ان نعرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كيف نستعمله ؟ وفي اي المواطن والمقامات ندخله ؟

مثال ذلك كلمة اذا ذكرتها للقارئ استقبحها وأنكر جوازاستعمالها . حتى اذاشرحت له طريقة الاستعمال والمقامات التي يجب ان تقع فيها أعجب بها . وعوّل على استعمالها من دون تردّد ولا نكير .

تلك الكلمة هي (المجاحشة) وهي في اللغة بمعنى المزاحمة وهذا المعنى إما ان يكون جاءها من مادة (الجحش) ابن الأتان فان الجحاش اذا أُرسلت العراك زاحم بعضها بعضاً . وإما ان يكون جاءها من (الجحش) مصدراً بمعنى السحج اي قشر الجلد : يقال جُحشت فخذه أو ساقه اذا قُشِر جلدها : فمن يجاحش الآخر اي يزاحمه في امر من الأمور انما تكون مجاحشته له في أشد حالاتها حتى تصل الى حدّ ان يقشّر احدهما بدن الآخر فهو مبالغة في تصوير المزاحمة وفرط اللزاز .

هذا هو معنى (المجاحشة) في أصل اللغة ثم استُعملت في مطلق مزاحمة : بين الجحاش او غير الجحاش . نتج عنهـا قشر جلد وخدش بدن او لم ينتج شيءٌ من ذلك . ولهذا لما رأوا ان الذي يدافع غيره عن نفسه تقع منـه مزاحمةٌ له سموا المدافعة مجاحشة فقالوا : جاحشَ فلانٌ فلاناً اذا دافعه وقاتله .

ثم توسعوا في الاستعمال فقالوا : جاحشَ فلان عن فلان اذا دافع عنه وحامى عنه . ومنه قولهم (فلان يجاحش عن خيط رقبته) اي انهم يحاولون الحكم عليه بالقتل وقطع العنق وهو يجتهد في المجاحشة والمدافعة عن نفسه بمختلف الوسائل .

نقول : ولكن مهما كان من امر اشتقاق كلمة (المجاحشة) ومهما كان من استعمال بلغاء العرب الأقدمين لها فالواجب في عصرنا هذا ان تموت موتاً ، اذ لايحسن ان يقال : فلان يجاحش في المحكمة عن فلان . ولا أن فلاناً أحسن المجاحشة في هذه الدعوى . ولا أنه مجاحش بارع كما يقال محامٍ بارع .

نعم لايجوز ان يقال ذلك جميعه ولا ان تستعمل كلمة (المجاحشة) في هذه المقامات لوجود كلمات غيرها تُغني عنها . وهي أليق بالاستعمال منها .

ولكن ماقول السادة الفضلاء في هؤلاء الذين يزاحم بعضهم بعضاً على أبواب الامراء . وكلٌ منهم يريد ان يتقدم على إخوانه . ويتبوأ المكان الأرفع من مجلس الامير وديوانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذه المزاحمة المقوتة التي تقع من اولئك البلداء . على هذه الصورة السوآء بمرأى ومسمع من العامة والدهماء . أليست جديرة بان تسمى (مجاحشة) لا (مزاحمة) وان يقال عن اصحابها في معرض التهكم بهم والتعيير . انهم كانوا يجاحش بعضهم بعضاً على باب الامير .

لا جرم ان العلم الذي عرّف (البلاغة) بانها مطابقة الكلام لمقتضى الحال يجوّز لنا استعمال كلمة (المجاحشة) وادّخارها لمثل ما ذكرنا من المقامات او المناسبات .

«المغربي»

حول « واسطة السلوك »

قرأت في الجزء الثاني من المجلة (شباط ١٩٣١) ما كتبه السيد محمد السعيد الزاهري عن كتاب ابوحمّو سلطان تلمسان وقال ان الذي ترجمه الى اللغة الاسبانية هو الاستاذ مارينو غاسبار نقلاً عن نسخة عربية مخطوطة موجودة في مكتبة الاسكوريال .

واني استميحكم تصحيح هذا الخطأ اذ المترجم ذكر في مقدمته ص ٧ مانصه :

انه ترجمه عن النسخة العربية المطبوعة في المطبعة الملكية في تونس سنة ١٨٦٢ واسم النص العربي « واسطة السلوك في سياسة الملوك » والكتاب موجود منه نسخة في مكتبة المجمع العلمي التاريخي في مدريد .

مدريد : م . أسين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطبوعات حديثة

—«»—

المراح في المزاح

موضوع هذا الكتاب (أعني المزاح والدعابة) من أشهى الموضوعات وانفعها بشرط ان يتجرد مما لا خير فيه من الكلام . وما تنبو عنه أسماع الكرام . ويكون الحال فيه كما قيل عنه صلى الله عليه وسلم (انه كان يمزح ولا يقول الا حقاً) وقد راعى المؤلف العلامة بدر الدين الغزي الدمشقي المتوفى سنة ٩٨٤ هـ هذه الشرائط في كتابه هذا : (المراح في المزاح) اقتصر فيه على ماورد في كتب السنة وأخبار السلف . فبدأ بما ورد من ذلك عنه صلى الله عليه وسلم ثم عن صحابته والتابعين . فجاء الكتاب في سبعين صفحة . وكل أخباره مروية بالسند على طريقة المحدثين . وقد وقعت مخطوطة هذا الكتاب في يد ناشرها السيد أحمد عبيد (احد اصحاب المكتبة العربية في دمشق) فطبعها بنفقة مكتبتهم المذكورة طبعاً بلغ حد الاتقان . وقد قدمها بكلمة منه ثم بترجمة المؤلف وعني عناية خاصة بتخريج أحاديث الكتاب فردها الى مصادرها او مصادر أخرى معتمدة . ولم يحذف من اصل المخطوطة سوى خبر خوات ابن جبير المشهور وهناك خبر آخر ذكره في ص ١٥ و يا ليته حذفه كما حذف خبر خوات . ومن جملة ما استفدناه من هذا الكتاب ان كلمة (الادب) التي يكثر أدباء العصر من البحث عن معناها وتحقيق امر مدلولها واطلاقها في زمن الجاهلية والاسلام — وجدنا لها معنى مناسباً لمعناها الذي لا يكاد متأخرو الادباء يفهمون سواه : وهو مستملح الأخبار التي تتضمن شعراً ولغة وفصاحة قول . ففي ص ١٩ ان السيدة عائشة (رض) عابت (القاسم) مذ لحن في كلامه وفضلت عليه (ابن ابي عتيق) وقالت للقاسم « اما اني علمت من اين أتيت ؟ هذا (تعني ابن ابي العتيق) قد أدبته أمه . وانت أدبتك أمك »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتقويم اللسان وتعويده الفصاحة في القول كان من الأدب في عرفهم . وجاء (في ص٣٧) ان ابن ابي عتيق المذكور وهو مشهور باللهو والمطايبة — داعب عبد الله بن عمر رضي الله عنه دعابة فيها شعر وشيء من رفث هاله امره اولاً حتى اذا فهم حقيقته ابتسم وطابت نفسه وقال لابن ابي عتيق (أحسنت فزدنا من هذا الادب) وهو يعني به الشعر وما احتف به من هذه الدعابة المفكهة .

والغلط في الكتاب قليل جداً أهمه غلطة وردت في (ص ٥١) في حكاية الاعمش الذي قدم لجليسه سلّة (فيها رغيفان بابسان وسكرّجة كامخ شُبِّت) هكذا ضبط المصحح كلمة (شبّت) بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول من مادة (شبّ) وتاؤه للتأنيث وقال في تفسيره ان معنى شبت أتيحت وتهيأت .

وصواب الكلمة (شِبتّ) وهي اسم على زون (فِلِزّ) اي بكسر اوله وثانيه وتشديد ثالثه وهو بقلة معروفة كما في كتب اللغة وفسره بعضهم بالسذّون اي الكمون فهو من الكوامخ المشهية للطعام . تارة يعالج كامخاً مستقلاً وتارة يضاف الى الطبيخ . وتارة يطبخ وحده كما يفهم من كلام ابن البيطار في مفرداته وهاك قوله (والكامخ المعمول فيه الشبت أصلح الكواميخ وانفعها للمدة ... وهو اصلح من كامخ الخندقوقا ... وكامخ الشبت جيد لمن أراد ان يتقايأ ... والشبت لا يصلح للمحرورين فان هم اكلوا من طبيخ فيه شبت كثير فليشربوا عليه من السكنجبين . وقال التجر يبيعون طبيخ الشبت ينفع من وجع الكلى الخ . وبالجملة فان الكتاب مفيد وقد أحسن ناشره في نشره فالشكر له .

« المغربي »

ارشاد الاريب

« الى معرفة الاديب المعروف بمعجم الادباء وطبقات الادباء لياقوت الرومي »

« عني بنسخه وبتصحيحه الاستاذ د . س . مرجليوث الجزء السادس الطبعة »

« الثانية بمطبعة هندية بمصر سنة ١٩٣٠ »

صدرت الطبعة الاولى من هذا الجزء في مصر ايضاً وفي نفس تلك المطبعة سنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٩١٣ وهو احد الاجزاء التي يتألف منها هذا الكتاب النفيس الذي احياه بالطبع صديقنا الاستاذ مرجليوث الانكليزي فاستحق إعجاب المشتغلين باحياء آثار الامة العربية . وقد نظر الاستاذ في الطبعة الثانية من هذا الجزء نظراً ثانياً وشفع طبعته هذه بفهرس مطول في اسماء الرجال قرّب على الباحثين منناله استغرق ٥٦ صفحة ، ثم ثناه بفهرس في اسماء الكتب الوارد ذكرها في هذا الجزء وقد بلغت ٢٣ صفحة . فنكرر للاستاذ المشار اليه تهانينا على توفيقه لنشر معجم ياقوت وللانتفاع به على هذه الصورة من الاتقان والامانة .

م . ك

المعيد في ادب المفيد والمستفيد

« اختصره من الدر النضيد للبدر الغزي — الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد »
« العلوي المتوفى بدمشق سنة ٩٨١ هـ ووقف على طبعه السيد احمد عبيد »
« الطبعة الاولى في مطبعة الترقي سنة ١٣٤٩ هـ ص ١٥٢ »

هذا الكتاب كما قال الاستاذ ناشره يشتمل على ادب العلم والمعلم والمتعلم وادب الفتوى والمفتي والمستفتي وادب المناظرة وشروطها وآفاتها والادب مع الكتب وما يتعلق بها الى غير ذلك من الفوائد ، وقد طبعه منقولاً من مخطوطته بقلم المختصر ، وجدت في حلب وعليها ايضاحات وتعليقات فأبقاها على ماوجدها ولم يعلق من عنده سوى تعليقات طفيفة لكنه بالغ العناية بالتصحيح على عادته في معظم ما طبع من آثار السلف فاستحق شكر الآداب على دؤوبه في خدمة الآداب .

م . ك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مجالس اناتول فرانس (١)

—«×»—

كان في كل حضارة قامت في الارض ، وكل اجتماع بلغ حد الكمال او كاد ، شأن عظيم لمجالس ارباب العقول والقرائح في تكوين ملكة العقل في تلك الامة ، وتعليم النابهين بالتلقين مافاتهم تلقفه في دراسة الاسفار والآثار . هكذا رأينا المجالس العلمية والفلسفية والادبية والصوفية في العصور العربية الراقية ، ولو دوّنت كلها لصوّرت لنا مجتمعات الأجداد على جليتها ، وعرفنا اكثر مما عرفنا طرق تفكيرهم وخوالج نفوسهم . بيد ان الشيء القليل الذي انتقل الينا في كتب المسامرات والمحاضرات وقفنا به الى حد لا بأس به على روح تلك القرون الزاهية ، ومن أهمها المجالس التي نقلها ، فيما انتهى الينا من تآليفه ، ابوحيان التوحيدي وأشرنا الى اكثرها في هذا المكان منذ اربع سنين . فقد صوّر لنا مجالس الفقهاء والفلاسفة والمتكلمين والادباء في القرن الرابع في بغداد تصويراً بدهش من يقرأوه ، حتى ليكاد يخيل اليه ان بغداد في عصرها الرابع للهجرة لم تكن في طرق البحث والنظر أقل من باريز ولندن و برلين ونيويورك في القرن العشرين للميلاد .

نعم كانت للقوم مجالس اومجتمعات في قصور الخلفاء والملوك والامراء والعلماء والاعيان يختلف اليها المتماثلون من عشاق الآداب والفضائل ، فيتكلم فيها ارباب العقول الراجحة والممتازون من كل رعيل ، بما تمليه عليهم قرائحهم المبدعة ، وعلومهم الناضجة ، فكانت المنافسة على أتمها بين المتصدرين لهذه المطالب . يحفظون احسن ما يقرأون ، ويتكلمون

---

(١) محاضرة للاستاذ السيد محمد كردعلي وزير المعارف في دولة سورية ورئيس المجمع العلمي العربي القاها في ردهة المجمع يومي ٧ و١٤ أيار سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باجمل مايحفظون . وهناك التفاضل ، وهناك التنافس في اقتناء المحامد ، واستفادة كل طالب وقاصد .

وأعظم بحظ من كانوا يختلفون الى تلك الاندية ، يطبقون مايقرأونه على مايسمعونه . ولغة الكلام المسموع ، أعمل في النفوس من لغة المقروء في المخطوط والمطبوع ، وصوت الحي يحيك في الصدور فيهي الملكات ، اكثر مما تحيك الرسوم والأشكال من حروف وكلمات . وربّ كلمة تتلقفها عن عالم ، تكون أشد تأثيراً في مجرى حياتك من مدارسة الصحف المكتوبة زمناً . ورأينا مجالس الوعظ التي كان يعقدها ابو الفرج ابن الجوزي في بغداد ودمشق يستمع الناس لفصاحته وخلاصة تجاربه في الحيانين الدنيوية والاخروية ، لم تكن في تأثيراتها في عصره اقل بكثير من تأثيرات علم الجاحظ بكتبه وتآليفه ، على مابين الرجلين من تفاوت في العصر وتفاوت في العلم . وشارك النساء الرجال في هذا الباب . هكذا كانت مجالس علية وسُكينة وولاّدة ، وهكذا كانت المجالس التي تنقل أخبارها الاصفهاني في الاغاني والتنوخي في نشوار المحاضرة .

والناظر في المجتمع الغربي منذ هبّ يتلمس الفوائد ، ويتحضر بنور العقل والثقافة يراه على حصة موفورة في عقد مثل هذه المجالس التي كان للملوك والامراء وأعيان الناس الفضل الاول في جمعها ، فقد فتحوا قصورهم وصدورهم لمجالس كان ، من أوتوا العلم ورزقوا الفصاحة من ابنائهم ، بلابلها المغردة ، عرفنا منها غرام الانكليز والفرنسيس بتلك المجتمعات منذ القرن الرابع عشر والى اليوم . وكل من تلمس أخبار مجالسهم في القرون الخمسة الاخيرة يقول معنا ، ان مجالس الادب الخاصة في كل مدينة من مدنهم ، كانت من العوامل الكبرى في تهذيب الملكات ، وبعث القرائح الكامنة والعبقريات الفائقة ، فكان صاحب المجلس او صاحبته يفاخر بمن قدر له ان يضم شملهم من ارباب المكانة والتجارب ، يجمعهم في اوقات معينة من ايام الاسبوع ، يتذاكرون صنوف العلم والأدب وينصتون لمن ميزتهم الطبيعة عن غيرهم ، فيحمل الصغير عن الكبير ، وينقل الخلف عن السلف من ضروب الآداب ، ماهو مفخرة الاجيال والاحقاب . و يبلغنا لهذا العهد عن الانكليز ان حب البلاغة تمكن من طبقاتهم العليا ، حتى انهم امسوا اذا اجتمعوا في ناد او الى مائدة لا يتكلمون الا بافصح مايعرفون ، فترى أحاديثهم مجموعات ادب ، ودروس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فصاحة وبلاغة ، اما الفرنسيس فهم بالاجماع سدنة هذه المقاصد ، ذلك لانهم أمة آداب قبل كل شيء ، وعنهم تحمل ومن لغتهم تنقل .

وآخر من انتهى الينا خبره بل أخباره من هذا القبيل كاتب فرنسا الاكبر (اناتول فرانس) ، فقد كان له صديقات من ارباب اليسار يرين من أعظم مفاخرهن ان يجالسهن في قصورهن في باريز ، يلقي عليهن وعلى جلسائهن ثمار قريحته وتجربته ، فيفيد بها النساء والرجال علماً يأخذ منه كل مستمع على قدر مبلغه من شهوة العلم ، والاستعداد للانطباع بالافكار الناضجة . وما خلت مجالسه في بيته وبيوت صويحباته منذ اشتهر بنبوغه من أناس نقلوا عنه ماوعاه في ردهاتهم من تصورات ، فنشروها للناس بعد وفاته ، وكانت صورة من بلاغة لسانه وازت بلاغة قلمه التي شهد بها كل عارف قرأها في اصلها او مترجمة الى لغة أخرى .

كان اناتول فرانس مولعاً بالقرن الثامن عشر يحيي آثاره ، وينعم في تقبّل خطى أهله ، ومن زاروه في داره أثبتوا انه لايختلف عن رجال ذاك القرن في المسكن والملبس والرياش والأثاث والعادة والمنزع الا فيما لابال له ، ولم يفترق عن اعاظم ارباب العقول المفكرة من اهل القرن السابق ، الا بما فطرت عليه نفسه من اطلاق الحرية الفكرية في مجالسه الى أقصى حد يصل اليه ابن القرن العشرين ، وفي مدينة مثل باريز وما يحمل اليها من ثمرات الادب الافرنسي خاصة والادب الغربي عامة .

شبهت معلمة لاروس (اناتول فرانس) بفولتير على اختلاف قليل بينهما ، فقد كان لهما ذوق واحد بمباهج الحياة ، ونفرة متحدة من الألم ، وتشابها في قلة الصبر على احترام مايحترمه الناس ، وطال عمرهما كلاهما ، وكان كل منهما في عصره ملكاً على الآداب . وقالت في مكان آخر : ان فرانس اذا كان في كلامه على السيدات صريحاً فانه كان يطرّس على آثار قدماء اليونان واللاتين ومصوريهم في هذا الشأن ، فهو مأخوذ بالقديم ويريد احياءه بما فيه من وثنية ووضوح . واناتول فرانس على ماظهر اخذ ما وضعه فولتير باليمين وقدسه وشرحه ، وكانت صلته برنان كبيرة ، فالأحرى ان يقال ان رنان خلف فولتير ، واناتول خلف رنان ، ورث كل منهم من صاحبه منازعه في الحرية ونقمته على المجتمع ، على أسلوب استطابه من استطابه ، وبعض الناس له منكرون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وممن نقلوا افكاره وأطواره بعد وفاته امين سره جان جاك بروسون كتب كتاباً سماه (اناتول فرانس في مباذله) اي في بيته ، ونقله الى العربية صديقنا العلاّمة الامير شكيب أرسلان . وكان نقولا سيغور [1] من ارباب الأقلام الزم لاناتول فرانس من من شعرات قصه مدة طويلة ، نقل حكايات اناتول في مجلد ، واحاديثه في مجالسه في مجلدين ، وهذه المجلدات الثلاثة لم تنقل الى العربية ، وعليها نعتمد في التحدث اليكم بنموذجات من مجالس نابغة أدباء هذا العصر غير مُدافع .

وها قد حان الوقت لننقل جملاً مما فاه به أديب الفرنسيس في حياته ، ودوّنوه عنه ونشروه بعد وفاته ، فصح فيه ماقاله الشاعر العربي من بعض الوجود . لان من عرفوا فضل الأديب الكبير في حياته اكثر ممن شاغبوا عليه ونقموا منه اشياء لم يستطيبها مذاقهم ، ولم تدخل او لم يريدوا ان يدخلوها في قلوبهم ويعوها في صدورهم ، وشاعرنا قال :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى لؤماً وخبثاً فاذا ما ذهب
لجّ به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب

* * *

قال اناتول فرانس في المجد الباطل : اياك يا صاح ان تثق بالمجد والعبقرية ، فان المرء اذا فكّر فيهما تهتز أعصابه . ولاشيء في هذه الدنيا كما يقول مونتين ، والدنيا هذه هي الارجوحة المستديمة ، أدعى الى التضعضع والتذرية من شهرة عظماء الرجال ، فقد يوشك

---

(١) Nicolas Ségur : Conversations avec Anatole France ou les mélancolies de l,intelligence .

احاديث اناتول فرانس او صوبداء الذكاء لنقولا سيغور .

Nicolas Ségur : Dernières conversations avec Anatole France.

أحاديث اناتول فرانس الاخيرة لنقولا سيغور .

Nicolas Ségur : Anatol France Anecdotique .

أناتول فرانس القصاص لنقولا سيغور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضهم ان يتنامى امرهم بسوء طالعهم ، وهكذا تراانا نحب الشاعر رونسار الذي دفنا ذكره مع ان دو بارتاس كان هو الشاعر العظيم ومثال العبقرية في ذاك العصر ، وكان كيتي الشاعر يعجب به الى الغاية ، وكان هذا على شيء من الذوق مثلنا . ان من احرزوا شهرة لا يستمتعون بها ابداً ، فان مصافق (بورصات) القيم الأدبية على ما أرى اكثر اضطراباً واقل ثباتاً من مصافق المضاربات المالية ، وكل قرن يهزأ بما تعبد به قرن آخر ، والقرون تتعجب بما أعجبت به قرون قبلها ، والاسماء الكبيرة قد تصغر . واذا قدر لنا ان أحببنا ما احبه الماضي ، فانا نأتي ذلك عرضاً او لأسباب أخرى ، خلافاً لما كان يذهب اليه آباؤنا ، وكل فكر يموت في الحقيقة بموت الزمن الذي ولد فيه .

وليس أدعى الى الهزوء والمذلة من تاريخ زعموا انه « اسمى التآليف » على وجه الدهر . مثل لنفسك العجب الذي يأخذ دانتي الشاعر لو قدر له ان يلقي نظرة على هذا الركام من الزيادات التي اثقل بها الشراح روايته الهزيلة الآلهية . وانظر هوميروس الشاعر لوعاد الى الارض فنظر الى التحريفات والزيادات والترهات المصنعة بايدي العلماء التي علقت بالالياذة . وتصور شكسبير الشاعر يستمع الى الوف من التأويلات في رواية هملت .

لا جرم ان هؤلاء الشعراء يجنون اذا شهدوا ما تم لشعرهم بعدهم ، وبعمل المعجبين بانفسهم الذين يتمثلون الاشياء على الاغلب ويجعلون من تفاسيرهم الكاذبة ما يهبثون به السبل الى تلك التآليف السامية حتى تدو شهرتها ، فهم ابداً يكهربونها ويجددونها ، فتزيد بهم على الدهر جدة وصقالا .

وليت شعري كيف نعتقد بحقيقة المجد وقد رأينا القرن العريق في المدنية اي قرن فولتير قد احتقر هوميروس ودانتي ، ووصف شكسبير بانه متوحش خشن ، ولذلك يجب ان لا يكون البحث الا في شهرة زائلة قامت على المصادفات والاوهام ، ونشأت من المهارة في اكتساب الصيت . قال : لما كنت متحفزاً الى الدخول في المجمع العلمي لفت نظري لودفيك هالبني الى رصفائنا الماهرين قائلاً : ان الواجب يقضي ان ارعاهم باحترام زائد ، لانهم كانوا أدعى الى الاعجاب من غيرهم ، اذ كاثروا الجماعة وهم في الحقيقة لا قرائح لهم . قال : انهم جد اقوياء ، جد اقوياء ، فاياك واياهم . نعم يا صاح ان ستاندال الذي لم يكن على شيء من العبقرية بل على جانب عظيم من صفات الملاحظة والحذاقة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد ظلّ خاملاً طول حياته لقلة مهارته ، ولضعف في عشرته ، فالمجد يكتب لمن يتطلبونه ، ولا أزال أسائل نفسي كيف استطاعت الوصول الى ماوصلت اليه وانا الى القصور ، في استبطان هذه الامور . ولقد حظي الحظ ببعض الأصحاب فرفعوا من شأن ما كنت اكتب امثال « كاتول ماندیس » و « كوبيه » . وكتب فيّ « لميتر » مقالات نوّه فيها بما انشأت ، فجزت القنطرة الصعبة حتى اصبحت في مأمن من نقد البله المغرورين . واذا كنت تعتقد انني اغتررت بفهم المعاصرين لي فقد ضللت ضلالاً بعيداً . ان كتبي وان عريت من المعاني العظيمة لاتستحق هذا الاقبال عليها ، الذي لا يغتبط به الا طابعها ، وهي لاتلابسني الا بما تحوي في مطاويها من المعاني الباطلة ، والاستطرادات التي تتخلل في نضاعيفها وتبدو بين سطورها ....

ما من احد فهم احداً حق الفهم ، ومن يفهم كلامهم بعض الفهم في العادة ، هم الذين يتحمس الناس للثناء عليهم ، وهذا سر المجد المؤلم . واعني بقولي المجد الذي ناله سوفقلس ودانتي وشكسبير بقوة التسلسل وبدون تمحيص ، واصاب منه ابسين الشاعر النروجي ، وان كان الى القصور وغير جدير بما بلغه . فهذا هو المجد الذي يرفع الناس به أناساً لم يفهموا ماقالوه وهم يقدسونهم . لان اولئك العظماء قلما يقرأ كلامهم ، ومانتناقله الامم بسرور عظيم حقيقي لا شوب فيه هو ما كتبه في الدهر الغابر أناس منذ عهد المصريين مثل ساندريون والبوسة الصغيرة ، والناس يقدرون غير مداجين بعض الكتب المتوسطة الاعتبار ، مدفوعين الى ذلك بما عمّ هذا العصر من التفاهة ...

وما يدريك ان المقالة الشديدة التي كتبتها على خلاف عادتي في جورج اوهنه قد كان فيها شيء من الحسد ، بيد انه كان المعيار محيداً ان انصفنا ، وهو جدير بهذا المجد ، ولم يكن الغرض العمل للحط منه ، فقد كانت القلوب كلها تخفق بالاجماع لما يخفق له قلبه . كان نابهاً متأثلاً واقل مهارة في صناعته من فوليه ، مبجلاً للأدب والمصانعة الاجتماعية ، وهو غاية الكمال للكل ، فكان يعطف على الفضيلة ويشجب الرذيلة ، يؤيد حقوق الاشراف والاغنياء والشعب ، ويسرّ قراءه ويحسن انتقاء العبارات التي في مكنتهم كلهم ان يكتبوها ، وهي ملك دائم لهم جميعاً . وان العبرات المخلصة لتسيل من مآقي بل على نحور من كنّ يقرأن رواية « لميتر دي فورج » ولا يجرح هذا الادب القراء بجديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يأتيهم به كاتبه ، ولا يقلقهم بحقيقة يحملها اليهم ، ولا يهينهم بشخصية احد ، ولا يسقطون في كلامه على خشونة الابداع التي تتعلق بها الافهام على غير رضى ، ولا تسيء الى الجهل الظاهر ، فلما يهتم الناس بالاقاصيص البشرية التي يقصها ارباب العقول الكبيرة ، ولكنهم يهتمون كل الاهتمام بما يطرز به كثير من الكتاب الحاذقين المسائل العالمية والمالية وحوادث الجنايات حيث تبدو الفضيلة والمال والجرمة الممزقة الإهاب والشهوة المتعذرة او المحققة الحين بعد الآخر . ان واحداً في العشرة الآلاف من القراء يتأثر لهمليت ويتفهمه ، ولكن سكريب يرضى عنه جميع الاذكياء ، فلا تصعب الإحاطة بكنهه ، بل هو على طرف الثمام من كل قلب ، وقراءته مدعاة اليسر والسرور .

فقال له راويته : ومع هذا فقد فضيتم على شهرة أوهنه بضربائكم الدامية . فأجابه : ليس الامر بقدر ماتقدره فلا تداجيني . وان مات فقد خلفه غيره ممن « دهن بزيت القداسة في زجاجة النفاذة » وهذا الجنس دائم لا يفنى . ثم انتقل الى الانحطاط العقلي في اوربا فقال : اذا قلت لك ان العبقرية معدومة فأنا ذاكر لك الماضي ، لان القرائح هي نتيجة التهذيب والثقافة والثمرة المجتناة من القرون البراقة الفائقة ، ولكن ما عم اوربا من الجهل والمادية المسلوفة وحب التسلق والتصلف لا يسمح للمرء ان يتكلم في العبقرية الآن وربما كانت الحال كذلك غداً . أصبحت الكتابة صناعة يسهل على الناس تعلمها ، لانها لا تتطلب الا حذقاً ، والاديب او الكاتب هو بمثابة مرآة لعصر يخلده ، والعبقرية وهي سر الماضي ، ومنار المستقبل ، لا تلبث ان تزول وتضمحل . فالثقافة تتوارى والرغبة في استقصاء كنه الامور تنقص ، ونحن ننظر الى القرون الماضية كأنها قرون فنيت ، اللهم الا ان يحدث حدث يضرب العقول ويجدد المواد ، فندخل في دور قصير فعلي يشبه دور القرون الوسطى في الادب والفن الخ .

وعاد فرانس في مكان آخر وكرر هذا المعنى من كره التمجد وأبان اشمئزازه من الشهرة مخاطباً رجلاً كان يمتدح اليه آخر كتاب له بقوله : اياك والمبالغة ، فقد قلت مراراً ان الحظ واتاني بان عضدني بعض الاصحاب مثل لميتر وكوبيه ومانديس فكتبوا في المقالات ونوهوا بكتبي ، فنبه ذكري بعد خموله وقال : ان اكثر ما كان يشمئز منه رسائل كانت تتوارد عليه وهي لسميه هكتور فرانس ، وكان هذا كاتباً ايضاً يكتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قصصه في أجرام العبيد ، فكانت نفس اناتول تتألم من نسبة الناس اليه اموراً ليست له . حتى قال لاحد أصحابه : انه يود ان ينتحر كما فعل روبنستين المزوّر فقتل نفسه ، لكثرة ما وجه الناس اليه من المديح عن القطع الموسيقية التي كان يضعها روبنستين الحقيقي . ثم قال : واني لأنزل عن هذا المجد كله مقابل قليل من الجمال ، ان إهاجة أجسام النساء أفضل من اثارة أفكار الرجال .

ولأناتول مواقف مع النساء وآراء بشأنهن قد لا توافقهن ، ونحن قد نستعظم صدور مثل هذه الأقوال من رجل عظيم كهذا : ومع هذا ننقل بعض آرائه في هذا الشأن لانها صورة من مجتمعه ، عرضت لخاطره فباح بها بلسانه ، وهي أشبه بما يدعوه الاوربيون الأدب المكشوف . وكان للعرب شيء منه يصرحون به من غير نكير . ولكن من اهل المجتمع الحديث من ينكرونه ، و يعدونه خروجاً عن قواعد الأخلاق واللياقة . ورب كلم يقبل في مجلس او مجمع ، و يعدّ من البذاءة او السلاطة التفوه به في مجلس او مجتمع آخر . وحرية الغرب اليوم لا تشبه حرية الشرق ، ومصطلح أمة لا يوائم مصطلح أخرى ولكن البشر مهما تكتم لم يبرح بشراً ، وان كان منه من يسرّ ومنه من يعلن .

فقد وقع لأناتول في احد مجالسه ان غنت فيه فتاة بولونية قطعة لشاعر الطليان دانونزيو فعلت الوجوه مؤثرات دلت على التبسط في اللذة ، وأخذت النفوس بما اهتزت له طرباً . وحاول أناتول ان يخلو في زاوية من الردهة بالفتاة يكلمها ، ولكن صاحبة الدار أبت على اناتول الا ان يكون حديثه علنياً ، وشق عليها ان تراه يخرج عن موضوع الجلسة ، فانتحى اناتول جانباً من الغرفة وقال في جملة ما قال : اي اسف ان يودع المرء شبابه ، فان الانسان عندما يصبح حقاً يعرف كيف يحب لا يستطيع الحب ولا يكون محبوباً . يجب ان يكون الحب من عمل الشيخوخة ، هذا ما قلته وأقوله ، ولو كنت أشارك المولى في إرادته ، لوضعت للمرء الحب في أواخر الحياة لا في مباديها ، والخالق تعالى رأى ذلك فجعل من بعض الحشرات ما يحب قبل ان يموت ، ثم بدل هذه الطريقة ، ولو كان لي من الامر شيء لخصصت الاعمال والمشاق للانسان في الوقت الذي يشبه فيه دودة الفراشة حتى اذا وافته الشيخوخة يغدو كالفراشة ، وتكون ايامه سعيدة ووقفاً على الحب ، فاذا قوي ساعده وعلت ثقافته يحسن الحب ومتى كثرت تجاربه يعرف العناق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذكر في احد مجالسه ان رجلاً افرنسياً من اهل القرن السابع عشر اشتبه في ان امرأته تخدعه ففكر ودبر مراراً ، وصح عزمه بعد ذلك على ان يفاتحها بالامر ، ويحمل اليها كأساً من السم يسقيها نصفه و يشرب النصف الآخر ليموتا معاً ، فرأت المرأة نفسها بريئة مما نسبه زوجها اليها ، ولكنه اضطرها الى تناول الكأس وقال لها : انني استدعيت اهلي واهلك ليشهدوا مصرعنا ، وجلبت الكاهن لتعترفي له ، وما كادت امرأته تشرب ما ناولها زوجها حتى اتى الكاهن فحلفت له بكل محرجة من الايمان انها ما كانت خائنة في زواجها ، وانها اذا غازلت احدهم او غازلها فما كان ذلك في غير محرّم ، فلما سمع الزوج قولها أيقن ان غيرته كانت في غير محلها ، فقفز من سريره الذي كان اضطجع عليه ، وقبل زوجه ورضي عنها ، وقال لها في الحال : ليس لك ان تخافي فليست الكأس التي شربتِها سماً بل هي مادة مرة .

فسأله راويته وكيف شعرت المرأة بالسم وما هو به ، فأجابه بانها توهمت الكأس سماً زعافاً ، فان كل شيء في الوجود وعالم المعنويات عبارة عن أوهام واستهواء ، فربّ مريض ينام بحقنة ماء وهو يتوهمها افيوناً ، وكم من امرأة ظنت نفسها حاملاً ولا تزال تعتقد ان في احشائها ولداً الى الشهر التاسع حتى يتجلى لها وهمها . وليت شعري اما كان الشهداء في العصور الاولى يحسون ان الملائكة تمسح وجوههم وهم يحرقون .

* * *

اناتول فرنس ممن شاكسوا الطبقات المتغلبة على المجتمع فأورثوه ذلاً وصغاراً ، فمن أجمل ما وصف به نفسه وعمله ومنزعه قوله : هنالك حقائق مرة المذاق على الطبقات المتأثلة والحكم الحاضر والمفهوم العام ، فمثل هذه الحقائق يجب عرضها على الناس بصورة تدل على عدم الاعتناء ، فاننا قوم نكتب للملإ الذين هم في الواقع وحدهم القراء ، فلا تهتكن ستر الهيكل بيد خشنة . بل اهتكه تدريجاً واخرقه بثقوب صغيرة خفية وبحجة انك تريد ان ترقعه . اقطع من هنا ومن هناك خرقاً واعمل منها ألاعيب صبيان ، وسهل على القارئ ان يفهم هو من نفسه ما لم ترد ان توضحه له .... يظنونني ماجناً و يقولون عني احياناً مشعوذاً وأحياناً سفسطائياً .... والحقيقة اني قضيت حياتي افرق ديناميتاً في قصاصات ورق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبينا تجد الامة الافرنسية تمجد جان دارك وتحتفل لها كل سنة يقول عنها فرانس انها لو ظهرت هذه الايام لكان نصيبها السجن اوالمستشفى او وضع الماء البارد على رأسها ...

وبينا تجد تلك الامة عبقرية نابليون تراه لا يصفه هو بما يخرج عن وصف المؤرخ المنصف ولا ينسب اليه شيئاً من الاعمال ولا سيما العلمية ، كمجموعة قوانينه المدنية ، الا انها من صنع من كانوا حول نابليون ومن عمل حملة غاشيته . وسئل مرة عن غمبتا خطيب فرنسا فقال فيه : قد هاجم فرنسا بسيل من جمله الفارغة ، ولقد كان مهذاراً عظيماً على الدهر ، وما أثر عنه انه قرأ كتاباً ، لانه لو قرأ لمنعته قراءته عن الكلام .

وذكرت في مجالسه مسألة دريفوس ومدح كليمانسو وجرى ذكر فيكتوريا ملكة الانكليز . فقال هرفيو وكان في المجلس : ان عهد الملكة فيكتوريا يعد من حيث السياسة والآداب من أحسن العهود ، فهو حري بان يشبه عهد الملكة اليصابات ، وان عهود النساء كزينوبيا واليصابات وماري تريز وفيكتوريا وغيرهن قد كانت بالنسبة لعهود الملوك اكثر تعقلاً ، وان عدد الملكات اللائي كانت عهودهن ممجدة كثير . فقال فرانس : النسبة معروفة لا تنافر فيها ، وهلا ادركت شرح ذلك من نفسك ياعزيزي هرفيو ، فان النساء والنديمات على عهد الملوك هن الحاكمات فتجري الامور على طريق وسط . ويكون عهد الملكات اكثر مجداً لان الرجال يصيحون فيه اصحاب الشأن فيكون العشاق والمستشارون هم الحاكمون ، فافهم ذلك وفقت الى الخير . فضحك هرفيو من هذا الجواب .

تكلم فرانس ذات يوم وحط من قدر العلوم ولا سيما من بعضها كعلم الجنايات (Criminalogie) الذي وضعه لومبروزو الايطالي مدعياً ان المجرمين يعرفون بسيماهم في الماضي والحاضر والمستقبل وقال انه شهد بعض القضايا المهمة من الجنايات في المحاكم ، فكان الجناة على الاكثر من جمال الوجوه على جانب ، ومن الدعة مايشبه دعة الحملان ، ومن الهشاشة والبشاشة ماهو موضع الإعجاب . وقال : ان الفرص تخلق اللصوص ، ثم التربية ثم جناية المجتمع على بنيه . وقال انه هو نفسه كان وجهه غير متناسب الاعضاء ، وان سقراط كان مشوه الوجه ايضاً ، وهو ما كان جانياً وكذلك الفيلسوف اليوناني ، وان ما يأتيه المجرمون قد يأتيه بعضهم بسائق عرضي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورأى العالم اشبه بما يصنعه الفاخوري من الاوعية والاواني وقال : ان منها مالا يصلح لشيء بل يلقى كما تلقى القمامات للاسمدة ، وان على الارض قلائل جداً من المخلوقات الحية وما عداها دويبات موقتة لا تعرف نفسها انها تعيش ، ولا تعيش الا على صورة مضحكة ، وعليهم يطير كثير من الطيور الغريبة ، وهذه الطيور هي أوهامهم ، وان سماء البشر مغشاة برفرفة الاوهام ، فان اوهامنا مؤلفة من كل ضرب من ضروب الألوان ، من الضاحكة كالندى وصوت العندليب الى الألوان القاتمة كالظلمات والحزن ، فاذا جمعت أجنحتها طرفاً الى طرف يظلم العالم من اوهام البشر . اما من يحيون حياة حقيقية وهم الذين يفكرون في ملكوت السموات والارض ، ممن تجردت عقيدتهم عن الاوهام الا قليلاً ونظروا الى السماء مجردة فانهم قلائل يعدون على الاصابع .

وقال مرة (بتعريب شكيب) يعجب الناس بسعة اطلاعي واما انا فما عدت أريد ان اكون واسع الاطلاع الا في مسائل الحب فالحب قد اصبح اليوم هو مبحثي الوحيد الخاص ، وعلى الحب أريد ان احبس ما بقي من حرارة قريبة الخمود . ولا ارني مليئاً بنص كل ما يُقذف في روعي من هذا الموضوع . فروح الطهر والصيانة اصبحت غالبة على آداب الدرس . ان المرأة صارت عندي كتاباً يقرأ وليست كتاباً مفسداً كما قلت لك . ولا بد لكثير التصفح فيه ان يسقط على موضع منه يجد فيه مكافأته على اتعابه . فانا اتصفح واتصفح كثيراً ياحبيبي .. ومتى اظفرني الله بمخلوقة من مخلوقات الله فانني أطالع هذا الكتاب البديع سطراً فسطراً ولا أجوز منه نقطة ولا شكلة وقد أضيع فيه احياناً نظاراتي .

و يرى اناتول فرانس ان البدع تؤيد الشريعة وكان يقول : لا يوجد مجنون وانما يوجد مراؤن و يوجد مسلوبو العقل و يوجد مرضى و يوجد مجانين . اعلم انه بدون شهوة لا يوجد شعور وبقدر ما نكون شهوانيين نكون اذكياء . واحسن فصول الحياة هو فصل اللذات . فالحكيم من يجتهد في إطالة هذا الفصل . بعض الناس يسخرون من الشيخ الذي يعشق . فيا للحماقة البالغة . فاما انا فأقلب قضية ديكارت فأقول احب اذاً انا موجود . ما عدت احب ما عدت اذاً في الحياة شيئاً .

وتكلم في احد مجالسه متصنعاً في يأسه فقال : ان الاشتراكية متعذر تحقيقها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكونوا على بينة من امركم ، فان التقاليد المالية «الرأسمالية» التي تشرف الثروة هي في الغاية من السلطان ويستحيل علينا ان نغلبها . والفقراء انفسهم يحترمون هذه التقاليد اشد من احترام الاغنياء لها . انظروا ماحدث لي فان منازعي وافكاري اشتراكية ، ولكن اي فائدة من ذلك مادام كل من يحيطون بي معارضين لي في هذه السبيل ، فقد جاءني منذ مدة نجار يرتب خزانة كتبي ، فاجتهد ان يضع المجلدات ذات التجليد النفيس في مكان تأخذه العين ، وان يخفي المجلدات التي كان جلدها ساذجاً في داخل الخزانة على الحائط ، له الويل انه يخجل من الكتب الفقيرة . وكذلك حال الوصيفة فانها تلقي في الحال في سلة سقط المتاع كل كتاب مخرق حاكمة عليه بمنظره ، حتى ان كلبي او كلب مدام كاليافيه في الباب يعوي في وجوه الفقراء ويريد ان يمزق باسنانه كل من لا تكون بزتهم حسنة . فكيف والحالة هذه تتوطد أركان الاشتراكية . ولقد أراد تولستوي الفيلسوف الروسي — ان يعيش بحسب قواعد الانجيل اي عيشة اشتراكية فلم يسعه الا الفرار من داره . فالمرء متى ملك داراً او كلباً وكان له أناس من حوله يصبح مالكاً ، فيشعر بالقوة التي تأتيه من التقاليد الرأسمالية . وثقوا بان روتشيلد هو متفوق علينا ابداً ، هو آخذ بعنان الاموال ، وجالس على عرش الماضي ، وحالته متأصلة واي تأصل بعادات الوف من السنين ، لم تكن تحوي غير الحرمة للغنيمة المستحصلة ، على حين ترانا نحن لانقف على غير ارجلنا صعاليك ولا مال لنا ، ورأسمالنا بعض مقالات في الصحف ، وبعض اوهام معششة في رؤوسنا ، فالمنافسة بيننا وبينهم ليست على أتمها . على اننا لايجب ان نفقد قوتنا ، فربما كتب لنا النصر يوماً ، فان غمامة تكون بحجم منديل الجيب تنشر العاصفة ، وشيعة قليلة من المجانين صدرت منها النصرانية القادرة اه .

وقال في موضع آخر : انا لا أرجو ان تكون الغلبة الدائمة للاشتراكية في عهدنا ، فالاشتراكيون كثير عددهم ، على حين يؤلف ارباب رؤوس الأموال أقلية صغيرة ، وبذلك كانت قوتهم . لانهم يستطيعون ان يحسنوا البحث والانفاق اكثر من الاشتراكيين وكان من الطبيعي ان يقل فيهم البله المعجزون ، ويستطيعون ان ينفذوا خططهم في الخفاء وبدون ظهور وضجة وبشيء من الصبر . ثم ان الملاء يدافعون عن حوزتهم وأموالهم فيستميتون في دفاعهم ، وعلى هذا يكونون الى التماسك وتكون صفوفهم متراصة ، على حين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يفادي صعاليك الاشتراكيين الا بما لا يملكون ، ولهذا ينقصهم النظام ؛ ولا يحفلون بما يأتون . هم يدافعون بصدورهم ، و باوهام ومقالات في الصحف ، وبآمال لهم في المستقبل اما خصومهم فيدافعون بسندات على المصارف وبأسهم مالية وبيوت وحلي وصاحبات وسيارات . فحماسة الصعاليك ظاهرة . وعبثاً تزداد وتحدث ضجة الخ .

وذكرته صديقته بمشهد من الاصحاب بقصة الغني الخجول فقال : وهل في العالم غني خجول ، الخجل من شأن الفقراء ، لان الاغنياء سلبوهم نعمتهم ، ومع هذا يلجأون اليهم كأنما يلجأون الى خالقهم والاغنياء لا يخجلون ، فهم لا عمل لهم يطفحون سكراً بالخمور ، وتكتظ معدهم بالمآكل ، ثم تحدثهم انفسهم ان يستولوا على كل ما فيه الجمال ، ويقتنون بدائع الصنائع ، وكان من حقها ان تكون وقفاً على الناس ، وهم لا يعطون شيئاً لمن هم الاصل في غناهم ، وأرى انه كان عليهم ان يخجلوا ، لانهم يتجسد فيهم الظلم وقلة المساواة وجميع شرور المجتمع الانساني . ثم قال : كان رجل انكليزي اسمه دبلي أعجوبة في أطواره ، وذلك قبل عهد الملكة فيكتوريا لا يحلم ليله ونهاره الا في إغاثة المحاويج ويرقب الفقراء في غدوه ورواحه . ولا يستمع الا لأصوات البائسين ، ولا يهتم إلا لارباب الاحذية البالية والالبسة الممزقة والسحنات الجائعة ، فيعطي ويطب ويغيث . فبصر ليلة برجلين يتكلمان في احد المنعطفات ، فأنصت الى حديثهما ، وكان فحواه ان احدهما يحتاج الى مائتي جنيه وانه اذا خانه السعد ولم يسدد بها ديونه يفلس لامحالة ، و يكون مصيره الانتحار غرقاً ، وقال له صاحبه انه من المستحيل ان يحرز هذا المبلغ ، فأجابه المحتاج ليس الا دبلي هو الذي يمكنه ان ينجده بالمال المطلوب ، فاقترب منهما دبلي وقال انني سمعت حديثكما . وانا أعرف دبلي شخصياً ، ولكن أرى بد ان لا يذهب عنكما ان في المدينة أناساً كثيرين على شاكلة دبلي يحبون عمل الخير ، فأواعدكما الى المقهى الفلاني غداً لاعطاء المحتاج مائتي جنيه على ان لا يفوتكما ان الخير في الناس عندنا لا ينقطع . وهكذا كان .

(البقية للآتي) محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عصر الجاحظ[1]

— ١ —

« حرية الفكر »

اذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ فلا نستطيع ان نصور هـذا العصر باحسن من تصوير الجاحظ له ، على ان الجاحظ لم يتبسط في هذا التصوير وانما جرت له عبارة في ترغيبه في اصطناع الكتاب ، واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب ، وهذه العبارة على وجازتها وعلى سهولتها قد مثّلت لنا الدهر الذي عاش فيه الجاحظ اكمل تمثيل على ان أبا عثمان قد قذف بها عَرَضًا وأعني بذلك انه نطق بها في مقام وصف غير وصف عصره ، قال[2] :

« و ينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقييد وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم » .

فاذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثّلت لنا كيف تتسلسل آثار العقول فيؤدي كل عصر نتائج مايجده من العبرة الى العصر الذي يليه ، و يزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر مايتيسر له من العلوم والتجارب ، اذا جاوزنا هذا كله تراءت لنا صفة عصر الجاحظ

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٤٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net